قضايا إسلامية

الدين والدولة

دكتور محمد عمارة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

قضايا إسلامية

الدين والدولة

دكتور محمد عمارة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى : ماجدة البنا

المراجعة والاشراف الفنى : عفاف توفيق

تقديم

فى الصراع بين الأمم التى ابتليت بالقهر الاستعمارى وبين القوى الاستعمارية ، كانت « الهزائم النفسية » ـ هزائم الارادة ـ أشد خطرا من « الهزائم المادية » ، المتمثلة فى احتلال الأرض ونهب الثروات ! ٠٠ فالهزيمة النفسية، وانكسار الارادة ، هما السبيل الأفعـــل ـ ان لم يكن الأوحد ـ لتأبيد احتلال الأرض ونهب الثروات ٠٠ بل انها تؤدى هذه المهمة دون أن تكلف القوى الاستعمارية نفقات النهب والاحتلال ؟! ٠٠

والذين يرصـــدون وقائع الصراع بين الأمم التى ابتليت بالاستعمار الغربى الحديث وبين القوى الاستعمارية يبصرون كيف تمثلت قمة الهزيمة النفسية للمقهور أمام القاهرة فى القبول « بالاستلاب الحضـــارى » ، والقنـــاعة بموقع « التبعية الحضارية » التى جاهد الغرب الاستعمارى لفرضـها على أمم الحضـــارات التى ابتليت باستعماره

الحديث •• وكانت ذروة هذا النجاح لهذا المخطط الغربى عندما أخذ البعض منا يرى ذاته وتراثه وتطوره التاريخى ب « عيون غربية » ، بدلا من « عيونه العربية الاسلامية »، غافلا عن الحقيقة « العلميـة ـ الاجتماعيـة » التى تؤكد على « تمايز » الحضارات تأكيدها على « تفاعلها » ، والتى ترى فى « التواصل الحضارى » ، بمسيرة الأمم العريقة ذات التراث الحضارى الغنى ، السبيل الأرشـد لامتلاك الجوهر الحقيقى للاستقلال ! ••

والذين يتأملون « التشرذم الفكرى » الذى أصيبت به « حياتنـا العقليـة » ، وبلوغ الاستقطاب والتطرف والغلو ببعض تياراتنـا الفـكرية الى حد « الطائفية » ، حيث « يتعبد » فريق بنصـوص « السـلف المملوكى العثمانى » •• و « يتعبد » فريق آخر بنصوص « السلف الغربى » ، يدركون مخاطر هـذه « الطائفية الفكرية » على وحدة الأمة واستقلاليتها العقلية ونهجها الحضـارى المتميز ، الأمر الذى يهددها باستمرار العجز عن الاتفاق على مشروع حضارى بديل يحقق لهـا النهضـة والتقدم والاستقلال ••

● أن تصور اسلامنا ـ وهو دين الاستنارة والتقدم والعقلانية ـ فى صورة « الكهانة » •• هو نظرة للاسلام بعيون غربية ، تراه وكأنه اللاهوت الكنسى الذى صنعته البابوية الكاثوليكية لأوربا العصور المظلمة •• يستوى

فى ذلك أن يكون هذا التصور صادرا عن « السلفيين ـ النصوصـيين ـ الاسـلاميين » ، أو عن « السلفيين ـ النصوصيين ـ المتغربين » ! ..

● وان تصور « دولتنا » الاسلامية .. فى صورة « الدولة الثيوقراطيـة » و « الحكومة الدينية » ـ ذات القوانين والسياسات المقدسة والثابتة ـ .. أو فى الصورة « العلمانية » ـ التى تدير ظهرها كلية للاسلام ـ هو نظرة « للدولة الاسلامية » بعيون غربية ، تراها فى صورة الدولة البابوية التى كانت سببا فى ابتـلاء أوربا بالجهالة والتخلف والاستبداد فى عصرها المظلم والوسـيط .. ثم تجرد حضارتنا وأمتنا من حق الاختيـار لطريق فى التطور والنهضة متميز عن الذى سلكه رواد النهضـة الأوربيون العلمانيون ! ..

● وان تصور قوميتنا العربية ، ووحدتنا القومية فى صورة النقيض المعادى للاسلام ووحدة الأمة الاسلامية .. وكذلك تصور هذه القومية فى الصـورة المقطوعة الصلات بالاسلام .. هو نظرة لها بعيون غربية تراها : « كنسية كاثوليكية غربية » أو « علمانية غربية » كذلك .. دونما اعتبـار لما بين « عروبتنا » و « اسلامنا « من علاقات ! ..

● وان تصور العلاقة بين حضـارتنا العربيـة الاسلامية وبين غيرها من الحضارات ـ وخاصة الحضارة

الغربية ـ فى صـــورة « رفض المتقوقع المنغلق » ، أو « تبعية المقلد المنســحق » •• هو نظـرة لهذه العلاقة بعيون غربية •• فالهيمنة الحضارية الغربية الاستعمارية هى التى ترفض التعددية الحضـــارية ، وتعادى تمايز سبل النهضة ومشروعاتها ، فلا ترى سبيلا آخـر غير « العداء الحضارى » أو « التبعية الحضارية » ، ولا تؤمن ب « تمايز » الحضارات مع « تفاعلها » ! ••

***

• تلك اشـــارات الى بعض آفاق الهزيمة النفســية أمام عدوانية الغرب الاستعمارى على التمايز الحضارى لأمتنا العربية الاسلامية •• وهى آفات أحدثت من ردود الأفعـــال فى حياتنـــا الفكرية ما أصابهـــا بالتشرذم والاســـتقطاب الى الحد الذى اقترب ببعض تياراتهـــا وفصائلها من درجة « الطائفية الفكرية » التى يختلف فرقاؤها اختـــلافا جذريا فى المنطلقات والغايات ، بل واللغة ومضامين المصطلحات ؟! ••

واذا كانت هذه الحالة مصـــدرا لقنوط البعض من جدوى النضال فى سبيل الاصـــــلاح والتغيير •• فان افتقار هذه الآفات الى الأصـــالة ، وغربتهـــا عن النهج الاسلامى ـ الممثل لفكرية الأمة وأيديولوجيتها الطبيعية ـ هو حقيقة لابد من الطرق على أبوابهـــا ، دونما يأس أو

ملل ، من أجل اجتماع فكر الأمة على النهج الجامع فى الأصول .. لنرى ـ بالوسطية الاسلامية :

● فى علاقة « ديننا » بـ « دولتنا » نهجا متميزا وفريدا ...

● وفى علاقة « اسلامنا » بـ « قوميتنا » نهجا متميزا وفريدا ...

● وفى علاقة « حضارتنا العربية الاسلامية » بغيرها من الحضارات نهجا متميزا وفريدا ..

وتلك هى رسالة صفحات هذا الكتاب .. تحملها الى الباحثين والقراء من خلال دراسات ثلاث .. تعالج أولاها علاقة « الدين » ب « الدولة » ، من خلال معالجتها لعلاقة « الرسالة » ب « السياسة » فى انجاز رسول الاسلام محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ..

وتعالج الثانية علاقة الاسلام بالقومية ، من خلال دراسة موقف الفكر الاسلامى من دعوة الوحدة العربية وحركتها ..

وتعالج الثالثة موقف حضارتنا العربية الاسلامية من الحضارات الأخرى ـ والحضارة الغربية على وجه الخصوص ـ من خلال دراسة علاقة « الموروث » ب « الوافد » ...

فمن خلال رؤية : طبيعة « الدولة » ....

و « القومية » .... و « الغير الحضارى » .. بمنظار اسلامى ، تقدم هذه الصفحات سياسة الاسلام ، والاسلام السياسى فى الدائرة الوطنية ــ الدولة ــ ... والدائرة القومية ... والدائرة الانسانية ...

فاذا أضافت جديدا .. وزادت من وضوح الرؤية ، حققت ما رجوناه منها ...

والله من وراء القصد .. نرجوه السداد والتوفيق ؟

دكتور

محمد عمارة

١

الدين والدولة

[محمد : الرسول •• السياسى]

في البدء ··· جدير بنا ، وواجب علينا أن نفتتح هـذا الحـديث ب « التعريف » بعنوان هـذا البحث ·· و « بالتكثيف » لمضمون القضية الفكرية المحورية التى تحملها سطور هذه الصفحات ···

ذلك أن الحديث عن « علاقة الدين بالدولة » ــ في مفهوم الاسلام ــ من خلال الحديث عن [محمد : الرسول·· السياسى] ·· يستلزم التمهيد بين يديه ب « التعريف » لمصطلح « الرسول » و « الرسالة » ·· و « السياسى » و « السياسة » ، وصولا الى القضية التى هى أخطر وأعقد قضايا هذا المبحث ·· قضـية العلاقة بين « الرسالة » الدينية وبين « السياسة » المدنية ·· بين ما هو « بلاغ عن الله » سبحانه ، وما هو « سياسـة للناس ورئاسة للدولة » فى الانجاز الذى أنجزه محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ·· أى العلاقة بين « الدين » و « الدولة » كما رآها ويراها الاسلام ··

أما « الرسول » ، فلقد تعـارف المسلمون على أنه

الانســـان الذى « بعثه الله تعـــالى الى الخلق لتبليــغ الأحكام » (١) .. وهذه « الأحكام » ، التى أمر الله رسوله بتبليغها ، هى جماع الرسالة ، التى عرفوها بأنها : « هى سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوى الألباب من خليقته ، ليزيح بها عللهم **فيما قصرت عنه عقولهم** من مصالح الدنيا والآخرة » (٢) ..

وأما « السياسة » ــ التى عرفها المحدثون بأنها : « رياسة الناس وقيادتهم » (٣) ــ فان لهـــا فى تراثنا الاســـلامى تعريفا دقيقا يمتاز ويتميز بتجسيـــد التزام سياسة الاسلام بالعدل والصلاح والاصلاح ، فيقول عنها هذا التعريف : انهـــا « ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد ، **وان لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحى** .. » (٤) .

وعلى ضوء هذه التعريفات ، التى حددت عنوان هذا المبحث ، نبصر العلاقة بين « الرسالة » و « السياسة » ..

---

(١) التفتازانى [شرح العقائد النسفية] ص ١٢٩ ، ١٣٠ طبعـــة القاهرة ، الأولى سنة ١٣٣١هـ سنة ١٩١٣م .

(٢) المصدر السابق . ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٣) مجمع اللغة العربية [المعجم الوسيط] طبعة القاهرة ، الثانية سنة ١٣٩٢هـ سنة ١٩٧٢م .

(٤) ابن القيم [أعـــلام الموقعين] جـ ٤ ص ٣٧٢ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

بين « الدين » و « الدولة » فى انجاز الرسـول ، عليه الصلاة والسلام ..

ف « الرسالة » - التى هى « الدين » والبلاغ عن الله سبحانه - قد قصدت ، فى الجوهر والأساس ، الى ازاحة العلل عن الأمة فيما قصرت عنه العقول فعجزت عن ادراكه مع الاستقلال ... وأحكام « الرسـالة » وهدى « الدين » هو مما يدخل فى نطاق « السياسة » ، لأن الناس به ومعه « يكونون أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد » .

لكن « السياسة » لا تقف عند معالم وأعيان أحكام الرسالة وأصول الدين ، لأن نطاقها الأكبر وميدانهـا الأوسع هو مما يخضع للتطور والتغير فيتمايز عن « ثوابت الدين » ، الذى أكمله الله ، فتنزه عن التطور والتغيير .. ومن ثم كان فيها - « السياسة » - الكثير مما « لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحى » ... فاذا ما جاء هذا القسم من « السياسة » متسقا مع مقاصد الشريعة الالهية ، أى محققا « للعدل » الذى أرسل الله رسله وأنزل كتبه لترتفع أعلامه وموازينه بين الناس ، كان جزءا من « السياسة الشرعية » .. أما اذا تنكب هذا القسم من السياسة طريق « العدل » ، فانه يخرج من اطار « الرسـالة » ونطاق « الدين » ، ويكون ، لذلك ، مجافيا للسياسة الشرعية ! ..

اذن ، فبين « الرسالة » و « السياسة » علاقات ..

وفروق .. وبين « الدين » ، و « الدولة » عموم وخصوص .. فكل « الرسالة » « سياسة » .. وليست كل « السياسة » « دينا ورسالة » ، وان كان « الدين » قد حدد لها الاطار..والمقاصد،التى تكون بالتزامها وتغييها « سياسة شرعية » ، حتى وان كانت من ابداع البشر ، لا من وحى الشارع الى رسوله عليه الصلاة والسلام ! ..

هذا عن « التعريف » بعنوان المبحث .. و «التكثيف» للقضية الجوهرية التى نجتهد للبرهنة عليها فى هذه الصفحات ..

***

محمد : الرسول :

فى مكة المكرمة بدأ طور « النبوة » لمحمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، عندما بدأه الوحى : [اقرأ باسم ربك] (٥) .. فلما انتهت « فترة » الوحى بدأ طور « الرسالة » عندما طلب الله منه « البلاغ » ، فنزل عليه جبريل بآيات القرآن الكريم [يأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر] (٦) .. ومنذ ذلك التاريخ

---

(٥) العلق : ١ .

(٦) المدثر : ١ - ٧ .

تتابع الوحى ، وأخذت عقائد « الاسلام الدين » تتبلور ، والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يبلغها ، سرا ، إلى القلة التى آمنت بالدين الجديد ·· لقد اقترنت عقيدة « التوحيد » ب « الرسالة » ·· ثم شرعت « الصلاة » ··

ولقد ظل المسلمون طوال سنوات « العهد المكى » قلة مستضعفة ، أقاموا « الدين » قدر استطاعتهم ، متحملين فى سبيل ذلك العنت والفتنة والبلاء ·· خضعت أرواحهم لدين الله ، لكنهم لم يبلغوا من القوة الحد الذى يمكنهم من اقامة الكيان السياسى الخاص بهم ، والمعبر عن « دولة الاسلام » ··· فكان الاسلام ، فى العهد المكى ، دينا لا دولة ·· وكان محمد ، صلى الله عليه وسلم . رسولا يبلغ أحكام الدين عن الله الى الناس ·· تلك الأحكام التى دارت حول « التوحيد » و « الرسالة » وبعض شعائر « العبادات » ·· ولم يكن ، فى ذلك العهد ، سائسا لدولة ولا قائدا سياسيا لمجتمع سياسى مستقل عن مجتمع المكيين ··

محمد : السياسى :

لقد اكتفينا ، فى الحديث عن « محمد : الرسول » ، بسطور تشير الى هذه المهمة ــ مهمة « الرسالة » ــ من انجازه ، عليه الصلاة والسلام ·· ذلك أن « رسالته » ليست ــ عند التحقيق ــ بموضوع للخلاف ··

● انها واحدة من العقائد الأســاسية فى دين الاسلام ٠٠ يشهد بها المسلم كما يشهد بتوحيد الله ٠٠

● وحتى الكفار ، الذين يجحدون رسالته ٠٠ انما يجحدون صدق دعواه لهـا ، ولا يجحدون أنه تقدم الى الناس يبشرهم وينذرهم برسالة قال عنها انها وحى من الله ! ٠٠

● أما آيات القرآن الكريـم ، التى تتحـدث عن « محمد : الرسول » ، فان احصاءها ــ مجرد الاحصاء ــ يستغرق الصفحات ٠٠ وذلك من مثل الآيات الكريمة : [**محمد رسول الله** والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ٠٠٠] (٧) ٠٠ [**وما محمد الا رسول** قد خلت من قبله الرسول] (٨) ٠٠ [ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن **رسول الله** وخاتم النبيين] (٩) ٠٠ [هو الذى بعث فى الأميين **رسولا** منهم] (١٠) ٠٠ [هو الذى أرسل **رسوله** بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله] (١١) ٠ [انا **أرسلناك** بالحق بشيرا ونذيرا] (١٢) ٠٠ [وأرسلناك **للناس رســولا** وكفى بالله شهيدا] (١٣) ٠٠ [كذلك

---

(٧) الفتح : ٢٩ ٠

(٨) آل عمران : ١٤٤ ٠

(٩) الأحزاب : ٤٠ ٠

(١٠) الجمعة : ٢ ٠

(١١) التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٨ ، الصف : ٩ ٠

(١٢) البقرة : ١١٩ ٠

(١٣) النساء : ٧٩ ٠

أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم] (١٤) ·· [يأيها النبى انا **أرسلناك** شاهدا ومبشرا ونذيرا] (١٥) ·· [**وما أرسلناك** الا كافة للناس بشيرا ونذيرا] (١٦) ·· [**وأرسلناك** للناس **رسولا** وكفى بالله شهيدا] (١٧) ·· [انا **أرسلنا** اليكم **رسولا** شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا] (١٨) ·· [قل يأيها الناس انى **رسول** الله اليكم جميعا] (١٩) ·· [قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا **رسولا ؟**] (٢٠) ·· الى غير ذلك ، مما ماثلها ، من ايات القرآن الكريم ··

فوضوح جانب « الرسالة » من انجازه صلى الله عليه وسلم هو الذى دعانا الى الاكتفاء فى الحديث عنه بالاشارة فى سطور ··

لكن ··· ليس كذلك مهمة « السياسة » فى انجازه عليه الصلاة والسلام ؟! ·· فحولها قام ، ولا يزال قائما الخلاف ! ··

---

(١٤) الرعد : ٣٠ ·
(١٥) الأحزاب : ٤٥ ·
(١٦) سبا : ٢٨ ·
(١٧) النساء : ٧٩ ·
(١٨) المزمل : ١٥ ·
(١٩) الأعراف : ١٥٨ ·
(٢٠) الاسراء : ٩٣ ·

ونحن نستطيع أن نوجز الخلاف الذى قام ، ولا يزال قائما ، حول مهمة « السياسة والسياسى » من انجازه ، صلى الله عليه وسلم .. وهل كان سياسيا ؟ أم كان رسولا فقط ؟ .. واذا كان سياسيا فما طبيعة سياسته ؟ بمعنى : ما هى علاقة سياسته برسالته ؟؟ ... نستطيع أن نوجز الحديث عن هذا الخلاف عندما نشير الى معالمه وأطرافه الأساسيين .

● فهناك الذين أنكروا ، وينكرون أن يكون محمد « سياسيا ، ومؤسسا لدولة سياسية » .. ويقولون : « ان محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، ما كان الا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه ، صلى الله عليه وسلم ، لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها . ما كان الا رسولا كأخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعيا الى ملك » (٢١) .

فهؤلاء يقولون : ان محمدا كان رسولا فقط .. ولم يكن سياسيا .. فهو لم يؤسس دولة ولم يرأس حكومة ، ولم يقم من الناس مقام القائد السياسى ، على النحو الذى عرفه التاريخ السياسى من القادة السياسيين ..

---

(٢١) على عبد الرازق [الاسلام وأصول الحكم] ص ١٥٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

ومن هؤلاء من يستند فى هذه الدعوة الى وقوف القرآن الكريم ، فى وصف محمد ، صلى الله عليه وسلم ، والحديث عنه عند وصف النبى والرسول ، وخلوه من وصفه له بصفة السياسى والحاكم السياسى وقائد الدولة ورئيس الحكومة .. فيقولون : « ان القرآن الكريم لم يجعل النبى العربى محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، ملكا أو رئيس دولة ، وظل ينعته بالنبى الرسول .. وليس من حقنا بأى حال من الأحوال أن نلتزم بغير ما جاء به القرآن الكريم ، ونستبدله بغيره . لم يكن نبى الاسلام فى أى وقت من الأوقات ملكا أو رئيس دولة ، وانما ظل دائما النبى الرسول .. » (٢٢) ..

● وهناك – على النقيض من هؤلاء – من لم ينكر كون « الدولة » و « الحكومة » من الانجازات التى مارسها محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فاعترف بتأسيسه «للدولة» ورئاسته « للحكومة » .. لكنه اعتبر هذه « الدولة » وتلك « الحكومة » « دينا خالصا » و « وحيا الهيا » لا دخل فيهما للطابع « المدنى – السياسى » ، ولا أثر فيهما لاجتهاد الرسول كبشر .. فهذا الجانب « السياسى » – ان جاز التعبير – من انجاز الرسول ، هو – فى رأى هذا الفريق –

---

(٢٢) د. محمد أحمد خلف الله [النص والاجتهاد والحكم فى الاسلام] – مجلة [العربى] عدد ٣٠٧ رمضان سنة ١٤٠٤هـ يونيو سنة ١٩٨٤م ص ٤٣ .

« دين خالص » ، ليس للرسول فيه سوى البلاغ عن الله والتنفيذ لوحيه ، مثله فيه كمثل بلاغه لشعائر الصلاة والصيام وممارسته لها وفق القواعد التى حددها وحى السماء .. فالاسلام ، عند هؤلاء ، « رسالة دينية خالصة » .. ليس فيها « سياسة » ، بالمعنى « المدنى — والبشرى — والاجتهادى — والابداعى » ، لأن ما يدخل منها تحت هذا العنوان ان هو الا « دين .. ووحى .. وروحانية ، لا أثر فيه لاجتهاد النبى ، كبشر ، ولا للمسلمين ، أو الواقع الذى قامت فيه « الدولة » و « الحكومة » التى رأسها محمد ، عليه الصلاة والسلام ..

ونحن نستطيع أن نميز من أصحاب هذا الرأى فرقاء ، اجتمعوا على « المضمون » ، وتمايزوا فى «الشكل» الذى صاغوا به هذا « المضمون » .

(أ) فالمستشرق سنتيلانه (De Santillana) [١٨٤٥ — ١٩٣١ م] يمثل هذا الموقف فى الدراسات الاستشراقية التى كتبت عن هذا الموضوع .. وهو يوجز هذا الرأى فيقول : « **الاسلام هو حكومة الله المباشرة ، يحكمها الله الذى يرعى شعبه دائما . فالدولة فى الاسلام يمثلها الله ، حتى الموظفون العموميون هم موظفون عند الله** » (٢٣) .

---

(٢٣) [القانون والمجتمع] ص ٤٠٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ترجمة : جرجيس فتح الله . طبعة بيروت — ضمن كتاب « تراث الاسلام » — سنة ١٩٧٢م .

(ب) والخوارج — من بين تيارات الفكر الاسلامى — قد ارتادوا هذا الميدان فى تراثنا السياسى — فلقد خلطوا بين « حكم الله » بمعنى « القضاء الدينى » ، الذى لأجله كان ، سبحانه ، هو « الشـارع » الوحيـد ، وبين « الحكومة » ، بمعنى « الامارة السياسية » ، التى هى الرئاسة والقيادة ، فى المتغيرات الدنيوية ، واقامة العمران وتطويره فى دنيا الناس ، وتحويل أصـول الشريعـة وقواعدها ، الخاصـة بالحيـاة السياسية والاجتماعية الى تفصيلات توضع فى الممارسة والتطبيق ..

ارتاد الخوارج هذا الميدان ، عندما خلطوا هذا الخلط ، فجعلوا « الدولة .. والامارة .. والسياسـة » « دينا خالصا » ، ومن ثم رفضـوا أن يكون للبشر مدخل فى « السياسة والحكومة » .. أى رفضوا — بلغة عصرنا — أن تكون « الأمة — فى السياسـة — مصـدرا للسلطة والسلطان » — .. وقالوا لعلى بن أبى طالب — الخليفة الراشد الرابع — عندما قبل التحكيم فى النزاع مع معاوية ابن أبى سفيان : « حكمت الرجال فيمـا حـكم فيـه القرآن ؟! » .. قالوا ذلك منكرين ومستنكرين .. ثم صاحوا : « لا حكم الا لله » ! ، حتى لقد جعلوا منها شعارا لهم ، فسموا لذلك ب « المحكمة » ! ..

ويومها رد على بن أبى طالب على هذا الخلط الذى جعل « السياسة » « رسالة » خالصة .. فقال فى وصفه

لعبارة « لا حكم الا لله » : « كلمة حق يراد بها باطل !!
نعم ، انه لا حكم الا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا امرة الا
لله . وانه لا بد للناس من أمير ، بر أو فاجر » (٢٤) !

فالخوارج — فى تراثنا — هم الذين ارتادوا — بهذا
الخلط الذى جعل « السياسة » دينا ورسالة » — ارتادوا
القول بأن « حكومة الاسلام السياسية » هى « حكومة
الله الدينية » ، فهى بلاغ عن الله ، ووحى منه لرسوله ،
لا شأن فيها للبشر ولا سلطان فيها للناس ! .

وعلى هذا « الدرب الخارجى » يسير اليوم دعاة بعثوا
شعار « الحاكمية » هذا ، بمعناه الذى يجرد الأمة من أية
سلطات ومن أى سلطان فى دنيا « الدولة » و « الحكومة
السياسية » .. فشاعت وتشيع كتابات تقول : « ان أى
شخص أو جماعة يدعى لنفسه أو لغيره حاكمية كلية أو
جزئية ، هو ولا ريب سادر فى الافك والزور والبهتان
المبين ... فالله معبود بالمعانى الدينية ... وسلطان
حاكم وحده .. بالمعانى السياسية والاجتماعية ... وهو
لم يهب أحدا حق تنفيذ حكمه فى خلقه ... وان الانسان
لا حظ له من الحاكمية اطلاقا ... وان الأساس الذى
ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية فى الاسلام : أن

(٢٤) على بن أبى طالب [نهج البلاغة] ص ٦٥ . طبعة دار
الشعب . القاهرة .

تنتزع جميع سلطات الأمر والتشريع من أيدى البشر ، منفردين ومجتمعين ... » (٢٥) .

فهم — بعد أن بعثوا هذا « الشعار الخارجى » — شعار « الحاكمية لله وحده » — وطبقوه فى دنيا « الدولة والحكومة السياسية » — قد اتفقوا — واقعيا وعمليا وفى المضمون — مع المستشرق « سنتيلانه » عندما جعل «السياسة» «رسالة خالصة» «ودينا محضا ووحيا وبلاغا» فقال عن حكومة الاسلام انها « حكومة الله المباشرة » !..

(جـ) واذا كان القول بهذا الرأى قد جمع — عمليا وباعتبار المضمون — بين من لا يظن اجتماعهم : الخوارج القدماء .. ودعاة محدثين ينفرون من سيرة الخوارج ومسلكهم ! .. ومستشرقين يصورون الاسلام ويتصورونه « كهانة — كنيسة » كتلك التى فرضتها البابوية الكاثوليكية على أوربا العصور الوسطى .. فان هذا الرأى قد جمع مع هؤلاء أيضا — رغم تباين الموقع والمنطلق وتغاير الملابسات — أولئك الذين قالوا ويقولون بنظرية الامامة الشيعية فى فكرنا الاسلامى ، القديم منه والحديث ! ..

ففى نظرية الامامة الشيعية نرى « الامامة » — وهى

---

(٢٥) أبو الأعلى المودودى (الحكومة الاسلامية) ص ٧٠ ، ٧٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م و [نظرية الاسلام السياسية] ص ٣١ — ٣٤ . طبعة بيروت — ضمن مجموعة عنوانها « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور » ، سنة ١٩٦٩م .

الولاية ـ والدولة والرئاسة السياسية جزء منها ـ ن.اعا .

أصلا من أصول الدين « لا يتم الايمان الا بالاعتقاد بها » (٢٦) ٠٠ بل هى أدخل فى أصول الدين وأوكد فى أركانه من معرفة الله ، ومن عدله ، ومن نبوة أنبيائه ٠٠ فهى من قواعد الايمان الخمسة ـ الشاملة لقواعد الاسلام :

« ١ ـ المعرفة : بما فيها الصفات الثبوتية والسلبية،

٢ ـ التصديق : بالعدل والحكمة ٠

٣ ـ التصديق : بنبوة محمد ، وجميع ما جاء به ٠

٤ ـ التصديق : بامامة الأئمة الاثنى عشر ، وما جاءوا به ٠

٥ ـ التصديق : بالمعاد الجسمانى ٠ »

وهم يجعلون القواعد « الثلاثة الأولى خاصة بالاسلام ، والأخيران من امتياز الايمان » (٢٧) وهم يقيسونها على

---

(٢٦) محمد رضا المظفر (عقائد الامامية) ص ٦٥ ٠ طبعة النجف ٠ دار النعمان ٠

(٢٧) أبو جعفر الطوسى [تلخيص الشافى] ج ١ ق ١ ص ٩١ « هامش » ، ص ٥٩ ، ٦٠ ٠ تحقيق السيد حسين بحر العلوم ٠ طبعة النجف ١٣٨٣ هـ ١٣٨٤ ٠٠ وأبو حنيفة النعمان المغربى [دعائم الاسلام] ج ١ ص ٢ ، ١٣ تحقيق آصف بن على أصغر فيضى ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م ٠

« النبوة » ، ويقررون « العصمة » لصاحبها ، الأمر الذى يجعل « سياستها » « دينا خالصا » .. فيقولون : اننا « نعتقد أن الامامة كالنبوة .. وحكمها حكم النبوة ، بلا فرق » (٢٨) ولذلك « فان دفع الامامة كفر ، كما أن دفع النبوة كفر ، لأن الجهل بهما على حد واحد .. لأن منطلق الامامة هو منطلق النبوة ، والهدف الذى لأجله وجبت النبوة هو نفس الهدف الذى من أجله تجب الامامة ، وكما أن النبوة لطف من الله كذلك الامامة ، واللحظة الحاسمة التى انبثقت بها النبوة .. وهو يوم الدار ـ [عندما جمع النبى عشيرته ودعاهم للاسلام] ـ هى نفسها اللحظة التى انبثقت بها الامامة .. واستمرت الدعوة ذات لسانين : النبوة والامامة ، فى خط واحد .. » .

بل لقد رفعوا شأن « الامامة » على « النبوة » ، عندما قالوا : « ولقد امتازت الامامة على النبوة بأنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة .. فالنبوة لطف خاص ، والامامة لطف عام » (٢٩) !

بل لقد جعلوا « الامامة » ـ والسياسة بعض من مهامها ـ هى « الرسالة » ، ففسروا قول الله سبحانه

---

(٢٨) [عقائد الامامية] ص ٧٤ .

(٢٩) [تلخيص الشافى] جـ ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ . والشريف المرتضى [مجموع من كلام السيد المرتضى] اللوحة ٦٣ . محفوظ بالمكتبة التيمورية . دار الكتب المصرية .

لرسوله : [يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك . وان لم تفعل فما بلغت رسالته] (٣٠) بأن معناه : « بين لتابعيك .. من القائم مقامك بعدك – [الامام] – .. وان لم تفعل فكأنك ما قمت بالأمر على وجهه .. » (٣١) !

« فالسياسة » – عند أصحاب نظرية الامامة الشيعية – مقدسة ، لأنها دين خالص ، وذلك لأن مصدرها – الامام – له عصمة الأنبياء ، اذ « يجب أن يكون الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه – نبيا كان أو اماما – معصوما .. » (٣٢) .

انها « الكهانة » .. لأن مصدر السياسة – الامام – « واسطة بين الله وبين خلقه » .. وهو « معصوم » من الخطأ ، وحده ، دون الأمة .. والله هو الذى يختاره ، دون البشر ، الذين « ليس لهم حق فى تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه ، لأن الشخص الذى له من نفسه القدسية استعدادا لتحمل أعباء الامامة العامة وهداية البشر قاطبة يجب ألا يعرف الا بتعريف الله ولا يعين الا بتعيينه .. ولذلك فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعينه الله .. » (٣٣) !

---

(٣٠) المائدة : ٦٧ .

(٣١) الكرمانى ، أحمد بن حميد الدين [راحة العقل] ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ . تحقيق : د. محمد كامل حسين ، د. محمد مصطفى حلمى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م .

(٣٢) [تلخيص الشافي] جـ ١ ق ١ ص ٢٠١ .

(٣٣) [عقائد الامامية] ص ٧٤ .

انها ذات نظرية « الحكم بالحق الالهى » ، التى عرفتها أوربا الكاثوليكية فى عصورها الوسطى ! ..

***

فنحن ، اذن ، أمام تيارين ، يقفان من علاقة « الرسالة » ب « السياسة » ـ و « الدين » ب « الدولة » ـ على طرفى نقيض ..

أولهما : **ينكر أن تكون للسياسة علاقة بالرسالة ،** فيرى الاسلام دينا خالصا ، ويرى رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، رسولا لا حاكما ولا رئيس دولة ، ولا سائسا للمجتمع الذى عاش فيه .

وثانيهما : يطابق بين الرسالة والسياسة ، فيجعل السياسة دينا خالصا ، ووحيا الهيا ، وبلاغا عن الله الى خلقه ، عبر النبى والامام ، ومن ثم يجعل الله هو الحاكم الأوحد فى شئون المجتمع السياسية عندما ينكر أن يكون للأمة مدخل فى السلطة والسلطان .

ونحن اذا تأملنا هذا الاستقطاب الذى قام ويقوم بين بعض تيارات الفكر السياسى الاسلامى ودارسى هذا الفكر ، نتذكر ، فى أسف وأسى ، تلك الآفة التى أصابت ولا زالت تصيب الكثيرين من أبناء أمة الاسلام .. **آفة « التقليد » للأطروحات الفكرية التى عرفتها ديانات أخرى وحضارات أخرى ، رغم تعارض أسسها وغاياتها ومناهجها مع الأسس والغايات والمناهج التى تميز بها الاسلام ..**

حدث ذلك ، ويحدث رغم وضوح مضاره ومخاطره على ذلك التميز الذى طبع نهج الاسلام فأكسبه خصوصية ازدان بها ، كدين ، وكحضارة ·· وهى خصوصية من الواجب أن نسعى الى التحلى بها أمة هذا الدين ··

وهو قد حدث ، ويحدث رغم أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قد حذرنا مغبته منذ عصر البعثة ، عندما تنبأ به فقال ، محذرا : « لتتبعن سنة من كان قبلكم ، باعا بباع ، وذراعا بذراع ، وشبرا بشبر ، حتى لو دخلوا فى جحر ضب لدخلتهم فيه » (٣٤) !

لقد عرفت مجتمعات قديمة وحضارات غير اسلامية ، ذلك النهج الذى جعل « السياسة » « دينا خالصا » ، وكان ذلك قبل أن تبلغ الانسانية طور الرشد الذى يؤهل الأمة لأن تكون مصدرا للسلطة والسلطان فى شئون الدنيا وتنظيم الدولة وسياسة المجتمعات ·· فعرفت الكسروية الفارسية كسرى مفوضا من معبوده « أهورا ·· مزدا » ، مفوضا بالحق الالهى لتكون « سياسته » « دين السماء » وقانونها المقدس ! ·· وعرفت القيصرية الرومانية القيصر — فى الوثنية — : ابن السماء — وفى المسيحية — : رئيس الكنيسة ، الحاكم بالحق الالهى ، على النحو الذى اشتهر فى أوربا الكاثوليكية بعصورها الوسطى — المظلمة ! ·· كما عرف التاريخ العبرانى « وحدة السياسة والدين » لدوام السلطة السياسية بيد الأنبياء ! ··

---

(٣٤) رواه البخارى ومسلم وابن ماجة وابن حنبل .

لكن الاسلام ، الذى فتح ـ بختم طور النبوة ـ للانسانية باب المرحلة التى بلغت فيها رشدها : هو الذى علمنا رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، أن هذا الطور الجديد قد اقتضى تطورا حاسما وتغيرا نوعيا فى طبيعة السلطة السياسية للدولة الاسلامية ، وفى طبيعة العلاقة بين « الرسالة » و « السياسة » ، بين « الدين » و « الدولة » ·· عندما قال ، عليه الصلاة والسلام : « ان بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وأنه لا نبى بعدى ، انه سيكون خلفاء » (٣٥) ··· فنبه على أن لنظام الحكم فى الاسلام طبيعة تخالف طبيعته التى عرفت فى التاريخ القديم وفى الحضارات التى سبقت حضارة الاسلام ··· وعندما قال ـ معلقا على حادث تأبير النخل ـ : « انما أنا بشر مثلكم ·· وما قلت لكم : قال الله ! ·· فما كان من أمر دينكم فالى ، وما كان من أمر دنياكم فشأنكم به ، أنتم أعلم بأمر دنياكم » (٣٦) ! ·· فنبه على أنه ، صلى الله عليه وسلم ، مع جمعه بين « الرسالة » و « السياسة » ، قد تمايز فى انجازه ما هو « رسالة » عن ما هو « سياسة » ·· ما هو « دين » عن ما هو « دولة » ·· فاختلف الوضع وتغير ، نوعيا ، عن « الكهانة » التى سادت عصور وحضارات ما قبل الاسلام ··

لكن ·· وبالرغم من هذا الهدى النبوى ، فلقد نفر

(٣٥) رواه البخارى وابن ماجه وابن حنبل ·

(٣٦) رواه مسلم وابن ماجة وابن حنبل ·

من المسلمين من تقدم أمة الاسلام ، باعا بباع ، وذراعا بذراع ، وشبرا بشبر ، فجعلوا « السياسة » « دينا خالصا » ، وأوجبوا للامام عصمة الأنبياء ! ..

واذا كان هذا الفكر قد ظل في تاريخنا وتراثنا مجرد « فكر نظرى » ، نشأ كرفض للسلطة السياسية البشرية الظالمة ، وكحلم بسلطة معصومة صنعها الله على عينه واصطفاها كما اصطفى الأنبياء ! .. فان شبيهه — « الكهانة الكاثوليكية » — عندما سادت أوربا العصور الوسطى ، فقد أفرزت ذلك اللون من ردود الفعل الحادة .. أفرزت نهج « العلمانية » Secularism .. الذى أنكر أهله ومفكروه أن تكون « للدين » علاقة بـ « الدولة والمجتمع » ، ورفضوا أن تكون « للرسالة الدينية » صلة بـ « سياسة دنيا الناس » ! ..

وكما ابتلى تراثنا القديم بآفة تقليد « الكهانة » القديمة .. كذلك ابتلى فكرنا الحديث بآفة تقليد « العلمانية » الأوربية .. وغفل الفريقان — القائلون بأن « دولة » الاسلام هى « دين خالص » .. والقائلون بأن الاسلام « دين » لا علاقة له بـ « الدولة » — غفلوا عن أن للاسلام ، فى هذا الأمر ، نهجا متميزا ، يرفض « الكهانة » و « وحدة الدين والدولة » و « الرسالة والسياسة » و « السلطة الدينية » و « الدولة الدينية » و « الحكم بالحق الالهى » .. كما يرفض ، فى ذات الوقت نقيض هذه

« الكهانة » : « العلمانية » التى تفصل « الدين » عن « الدولة » ، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! ..

انه النهج الاسلامى ، المتميز ب « وسطية » الاسلام .. تلك « الوسطية » التى لا تعنى رفض هذين النقيضين لكى تقف بينهما ، وعلى مسافة متساوية بينها وبين كل منهما ــ كما هو شأن « الوسطية الأرسطية » ــ وانما هى ترفض الانحياز لأى من النقيضين ، لتصوغ معالم موقفها الثالث من السمات والقسمات الممكن جمعها والتأليف بينها من بين سمات وقسمات النقيضين اللذين رفضت الانحياز لأى منهما .. فهى وسطية « العدل » بين الظلمين .. و « الحق » بين الباطلين .. و «الاعتدال» بين التطرفين .. الوسطية التى تجمع وتؤلف بين ما يعد فى المنظومات غير الاسلامية متناقضات يستحيل الجمع بينها ، فضلا عن التأليف ! ... الوسطية التى تجمع بين « الرسالة » و « السياسة » .. بين « الدين » و « الدولة »، مبصرة العلاقة بينهما ، دون أن تبلغ هذه العلاقة حد « الاندماج والوحدة » ــ كما فى « الكهانة والدولة الدينية » ــ .. ودون أن تتدنى وترق هذه العلاقة الى حد « الانفصال » ــ كما هو الحال فى « العلمانية » ــ الوسطية التى تدعو الى « الدولة الاسلامية » و « السياسة الاسلامية » ، فى ذات الوقت الذى ترفض فيه « الدولة الدينية » رفضها للعلمانية ؟! ..

علاقة « **الرسالة** » ب « **السياسة** » و «**الدين**» ب «**الدولة**» :

كل تيارات الفكر الاسلامى السنية وأعلام علمائها مجمعون على أن « الدولة » ليست « ركنا » ولا « أصلا » من أركان « الدين » وأصوله ... فهذه الأركان والأصول قد حددها حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله . واقام الصلاة . وايتاء الزكاة . وصوم رمضان . وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » (٣٧) .. وهى ، كذلك ـ كما يقول ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م] ـ ليست ركنا من أركان « الايمان » الستة ـ [وهى الايمان : بالله ، والملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، والقدر] ـ ولا ركنا من أركان « الاحسان » ـ [التى يجمعها : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك] ـ (٣٨) .

ولم يقل أحد من هؤلاء الأعلام ان الوحى القرآنى قد فصل للدولة الاسلامية نظاما ، ولا أن الله قد أوجب على رسوله ، فى القرآن ، اقامة « الدولة » كما أوجب عليه أركان الاسلام وفرائض الدين وأصول الاعتقاد .. ف « الدين » : « وضع الهى » ، وهو ، فى الرسالة الخاتمة ، قد اكتملت أركانه وعقائده وأصوله وشريعته فى

---

(٣٧) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حنبل .

(٣٨) ابن تيمية [منهاج السنة النبوية] جـ ١ ص ٧٠ ـ ٧٢ .
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م .

القرآن الكريم ، الذى لم تشتمل آياته على نظام للحكم ولا تشريع للدولة ولا تفصيل للحكومة التى يزكيها كى تسوس مجتمع الاسلام ..

وبالطبع ، فليس بين أهل الاسلام من يعتقد أن هذا « السكوت القرآنى » عن تفصيل شأن « الدولة » ونظام الحكم السياسى راجع الى السهو أو القصور أو التقصير .. فحاشا لله وتنزه سبحانه .. لكن الذى يعتقده المسلمون هو أن القرآن [ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه] لما كان كتاب الرسالة الخاتمة ، فانه قد وقف عند النهج والمقاصد والغايات والفلسفات فى كل ما يتصل بالأمور التى هى محل وموضوع للتغير والتطور ، الذى هو قانون طبيعى وسنة من سنن الله فى الكون الذى أبدعه ويرعاه .. ومن هذه الأمور : اقامة « الدولة » وقيادة الأمة وسياسة المجتمعات ..

فكون « الدولة » ليست ركنا من أركان « الدين » ، لا يعنى انتفاء العلاقة بينهما ، على نحو ما يفهم العلمانيون .. لا لما قدمنا من السبب الذى أخرجها من نطاق الثوابت الدينية فقط ، وانما لأسباب أخرى تشهد لوجود العلاقة بين « الدين » و « الدولة » ، على النحو الذى تميز فى الاسلام وتميز به الاسلام ..

● فالقرآن الكريم ، الذى لم يفرض على المسلمين اقامة « الدولة » .. قد فرض عليهم من الواجبات الدينية ما يستحيل عليهم القيام به والوفاء بحقوقه اذا هم لم

يقيموا « دولة » الاسلام ! ٠٠ فهناك ، من فرائض الاسلام وواجباته الدينية ، حدود لابد لقيامها واقامتها من «الولاية» و « الدولة » و « السلطان » ٠٠ مثــل جمع الزكاة من مصادرها ووضــعها فى مصارفهــا ٠٠ ومثــل القصاص وما يلزم له من تعديل للشهود وتنظيم للقضاء ٠٠ ومثل رعاية المصالح الاسلاميــة ، على النحو الذى يجلب النفع ويمنع الضرر والضرار ٠٠ ومثل تنظيم فريضة الشورى الاسلامية فى أمر المسلمين ٠٠ ومثــل القيام بفريضة العلم ٠٠ ومثل وضــع الآية القرآنيــة التى توجب على المسلمين طاعة أولى الأمر منهــم فى التطبيق ، ذلك أن القرآن الكريم قد توجه الى ولاة الأمر ٠٠ أهل « الولاية » و « الدولة » و « السلطان » ، فأوجب عليهم أداء الأمانات الى المحكومين (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتهم بين النــاس أن تحكمــوا بالعــدل ، ان الله نعما يعظكم به ، ان الله كان ســميعا بصير) (٣٩) ٠٠ ثم توجه ، فى الآية التى تلت هذه الآية ، الى الرعية والأمة فأوجب عليها طاعة أولى الأمر الذين ينهضون بأداء هذه الأمانات [يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منــكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرســـول ان كنتم تــؤمنون بالله واليــوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) (٤٠) ٠٠ فوجود « ولاة للأمر »

---

(٣٩) النساء : ٥٨ ٠

(٤٠) النساء : ٥٩ ٠

يجب عليهم أداء الأمانات الى المحكومين •• ووجود •• رعية تجب عليها طاعة « ولاة الأمر » هؤلاء ، هى فرائض دينية لاسبيل الى الوفاء بها اذا غابت « الدولة » من عالم الاسلام والمسلمين •• وهكذا نجد **أن « الدولة » ، رغم أنها ليست فريضة قرآنية ولا ركنا من أركان « الدين » ، الا انه لا سبيل ، فى حال غيابها ، الى الوفاء بكل الفرائض القرآنية الاجتماعية ، والوجبات الاسلامية الكفائية ، التى يقع الاثم بتخلفها على الأمة جمعاء ، والتى كانت ، لذلك ، آكد من فروض الأعيان ! •• فوجوب « الدولة » ، اسلاميا ، راجع الى أنها مما لا سبيل الى أداء الواجب الدينى الا به •• ومن هنا تأتى علاقتها ، وعلاقة «السياسة» ب « الدين » فى نهج الاسلام ! •• انها « واجب مدنى » اقتضاه ويقتضيه « الواجب الدينى » الذى فرضه الله على المؤمنين بالاسلام •**

● ويزيد هذه الحقيقة الاسلامية جلاء ووضوحا اتفاق المسلمين ـ باستثناء أبى بكر الأصم (٢٧٩ هـ ٨٩٢ م) ـ من المعتزلة ـ و « النجدات » ـ من الخوارج ـ اتفاقهم على « ضرورة الدولة ، ووجوبها » ، شرعا أو عقلا، أو للاعتبارين •• لأن « الناس يتظالمون فيما بينهم ، بالشره والحرص المركب فى أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا الى الحكام » (٤١) •• ولأن « الانسان مطبوع على الافتقار

---

(٤١) الجاحظ [رسائل الجاحظ] جـ ١ ص ١٦١ • تحقيق : عبد السلام هارون • طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م •

الى جنسه ، واستعانته صفة لازمة لطبعه ، وخلقه قائمة فى جوهره ·· » (٤٢) ·· ولأن « صلاح الدنيا معتبر من وجهين :

أولهما : ما ينتظم به أمور جملتها ··

والثانى : ما يصلح به حال كل واحد من أهلها ·· » (٤٣) ··

ومع اتفاقهم على ضرورتها ووجوبها ، فانهم قد اتفقوا ـ خلا الشيعة ـ على أنها من الفروع ، وليست من أصول العقائد ولامن أركان الدين ·· فهى واجب مدنى اقتضاه ويقتضيه الواجب الدينى ، المشتمل على تحقيق الخير للانسان فى هذه الحياة ··

فالامام الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) يقول : « ان نظرية الامامة ليست من المهمات ، وليست من فن المعقولات فيها ، بل من الفقهيات ـ (الفروع)(٤٤)ـ ·· والنظريات قسمان : قسم يتعلق بأصول القواعد ، وقسم يتعلق بالفروع ·· وأصول الايمان ثلاثة : الايمان بالله ، وبرسله ، وباليوم الآخر ، وما عداها فروع ·· والخطأ فى أصل الامامة وتعينها وشروطها وما يتعلق

(٤٢) الماوردى [أدب الدنيا والدين] ص ١٣٢ · تحقيق : مصطفى السقا · طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م ·

(٤٣) المصدر السابق · ص ١٣٤ ·

(٤٤) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٤ · طبعة القاهرة ـ صبيح ـ ضمن مجموعة · بدون تاريخ ·

بها ـ (أى فى جماع الدولة والسياسة) ـ لايوجب شىء منه التكفير » (٤٥) ! ••

وامـام الحـرمين ، الجوينى (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥ م) يقول : « ان الكلام فى الامامة ليس من أصول الاعتقاد » (٤٦) •

وعضد الدين الايجى (٧٥٦ هـ ١٣٥٥ م) والجرجانى (٧٤٠ ـ ٨١٦ هـ ١٣٤٠ ـ ١٤١٣ م) يقولان : « ان الامامة ليسـت من أصول الديانات والعقائد ، بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين •• » (٤٧) •

ويتفق الشهرستانى (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ ـ ١١٥٣ م) مع كل هؤلاء ، فيقول : « ان الامامة ليست من أصول الاعتقاد •• » (٤٨) •

أما ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) فانه يرفض قول الشيعة بأن الامامة من أركان الدين ، ويقول : « •• وشبهة الشيعة الامامية فى ذلك انما هى

---

(٤٥) [فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة] ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م •

(٤٦) [الارشاد] ص ٤١٠ طبعة القاهره سنة ١٩٥٠م •

(٤٧) [شرح المواقف] جـ ٣ ص ٢٦١ • طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ•

(٤٨) [نهاية الاقدام] ص ٤٧٨ تحقيق : الفريد جيوم • طبعة مصورة ، بدون تاريخ أو مكان الطبع •

كون الامامة من أركان الدين ·· وليس كذلك ، انما هى من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق » (٤٩) !

فهى ليست ركنا دينيا ·· وانما هى واجب مدنى وضرورة مدنية ، لكن ليس بالمعنى الذى يقطع صلاتها وعلاقاتها بالواجبات والفرائض الدينية ، على النحو الذى يقول به العلمانيون ، لأن قيام الكثير من الواجبات « الدينية » متوقف على تحقق هذا الواجب « المدنى » ·· وانما بمعنى انتفاء « الكهانة » و « الثيوقراطية » (Theo-Cnacy) عن طبيعة « الدولة » والسياسة فى الاسلام ··

● ونحن اذا تأملنا موقف أبى بكر الصديق من قتال القبائل التى بقيت على اسلامها ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكنها امتنعت عن تسليم زكاة أموالها اليه ، كخليفة للدولة الاسلامية ·· اذا تأملنا هذا الموقف وجدناه نموذجا جيد التعبير ·· عن طبيعة العلاقة بين « الدين » و « الدولة » فى نهج الاسلام ··

فالذى رفضته هذه القبائل وارتدت عنه لم يكن «دين» الاسلام ·· لأنهم ظلوا على الايمان « بالتوحيد » ، و « النبوة » ، يصلون ، ويصومون ، ويحجون ·· بل لقد ميز مالك بن نويرة وأصحابه الزكاة عن أموالهم ·· لكنهم امتنعوا عن اعطائها « للدولة » الجديدة ، دولة

---

(٤٩) [المقدمة] ص ١٦٨ · طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ ·

الخلافة ، التى قامت بالمدينة عقب وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم •• وكانوا فى هذا الموقف « مرتدين عن وحدة الدولة » ، رغم « ايمانهم بالتوحيد الدينى » الذى جاء به الاسلام ••

لكن أبا بكر ، بعبقريته السياسية التاريخية ، لم يقبل منطق عمر بن الخطاب ، الذى سأله معترضا كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا اله الا الله ؟ •• وفى السنة النبوية أن من شهد بها فقد عصم ماله ودمه ؟!•• لم يقبل أبو بكر هذا المنطق ، الذى يقف عند « الدين » ، دون أن يبصر علاقته ب « الدولة » •• فمع تسليمه بايمان القوم — المرتدين — بالاسلام ، رغم ارتدادهم عن وحدة « الدولة » الاسلامية ، أبصر علاقة « الدين » ب « الدولة » ، ورأى « وحدة الدولة » حقا يقتضيه « التوحيد فى الدين » ! •

فوجود « دولة الخلافة » ، يومئذ — وهى ضرورة مدنية ، وواجب سياسى — كان السبيل لتنظيم « الزكاة » ، التى هى واجب دينى ، وركن من أركان الاسلام الدين •• وهذا هو المعنى الحقيقى والعميق لعبارة أبى بكر التى حسمت الحوار الذى دار حول مشروعية قتال هؤلاء المرتدين عن وحدة الدولة الاسلامية : ان الزكاة هى حق لا اله الا الله ! •• « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » •• وبه شرح الله صدر عمر لرأى الصديق فى هذا الموضوع الخطير ! ••

بل لعلنا لا نغالى اذا قلنا ان وجود «دولة الخلافة» ـ التى حماها الصحابة ودعموها بقتالهم للمرتدين ـ رغم طابعها المدنى ، وانتفاء وصف « الواجب الدينى والفريضة الدينية » عنها ـ ان وجودها كان السبيل لما هو أكثر من اقامة « فريضة الزكاة الدينية » كركن من أركان الدين .. اذ أنها كانت السبيل لاقامة الاسلام كله كدين .. ف «الدولة» هى التى نشرت الاسلام خارج شبه الجزيرة ، بعد أن أعادت رفع أعلامه التى طواها العرب المرتدون .. ولولاها لتهددت الاسلام مخاطر أن يصبح مجرد نحلة من النحل التى عرفها التاريخ ، أو ديانة يقف شرف التدين بها عند قلة من النـاس .. لقد كانت هذه « الدولة » هى الأداة التى تحقق بها وعد الله سبحانه فى قرآنه الكريم : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (٥٠) ! .

ان « التشـــيع » ـ كمذهب ـ لم يبلغ فى المنطق والاتســاق والتماســك مبلغ « الاعتزال » .. وعبقــريه الليث بن ســـعد (٩٤ ـ ١٧٥ هـ ٧١٣ ـ ٧٩١ م) ومحمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ ٨٣٩ ـ ٩٢٣م) فى الفقه لا تقل عن عبقرية مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩ هـ ٧١٢ ـ ٧٩٥ م) ومحمد بن ادريس الشافعى (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م) .. لكن وجود « الجماعة المنظمة» هو الذى ضمن البقـاء لمذهب التشـــيع ، ولفقه مالك والشافعى ، على حين ذاب الاعتزال ، واندثر ابداع الليث

---

(٥٠) الحجر : ٩ .

والطبرى كفقهاء ·· وهذا برهان على أهمية « النظـام والتنظيم » بالنسبة لبقاء وانتشار الدعوات ·· وبرهان على مكان « **الدولة** » ــ **رغم طابعها** المدنى ــ من الاسلام كدين ·· فتميز طبيعتها عن طبيعة الدين ، **وان برأها من « الكهانة والثيوقراطية » ، الا أنه لا يقطع الصلات بينها وبين الدين ، على النحو الذى يقول به العلمانيون ، فهى واجبة ، بنظر الاسلام ، وضرورة شرعية ، لأن فى تخلفها تخلف الواجبات التى فرضها الدين !** ·

***

معالم دولة الرســـول

عليه الصلاة والسلام :

على أن أبلغ رد على العلمانيين ، القائلين بعلمانية الاسلام ، والذين يزعمون أن محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، لم يؤسس دولة ولم يقم حكومة ولم يكن قائدا سياسة للمجتمع المدنى الذى عاش فيه بعد هجرته (١ هـ ٦٢٢ م) ·· ان أبلغ رد على هؤلاء هو الاشارة الى معالم هذه الدولة التى أسسها الرسول وصحبه ، وهى المعالم التى تواترت أخبارها فى أمهات مصادر التاريخ والحديث ··

● فقبل شهور من هجرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من مكة الى المدينة تم عقد تأسيس هذه الدولة بين الرســول وبين قادة الأوس والخزرج وممثليهم ، الذين التقوا به فى موســم الحج من ذلك العــــام ·· فكانت

« بيعة العقبة » هذه عقدا سياسيا وعسكريا واجتماعيا ـ حقيقيا لامفترضا ـ لتأسيس الدولة الاسلامية العربية الأولى فى التاريخ ! ·· فقبل هذه البيعة كان المسلمون بمكة جماعة مستضعفة ، تخفى الايمان وتستخفى بشعائر الدين الجديد ·· لكن هذه البيعة ، التى تمت بين النبى وبين خمس وسبعين من وجوه الأوس والخزرج ـ من بينهم امرأتان ـ قد نصت وشملت ـ الى جانب الايمـــان بـ « الدين » الجديد ـ بنـــود تأسيس « دولة يثرب (المدينة) » ·· ففيها تم الاتفاق على : هجرة الرسـول وصحبه الى المدينة ، مكونين مع أهلها أمة جديدة لهـا سلطانها الموحد والجديد ·· وعلى أن يكونوا القوة المقاتلة لحماية الدعوة الجديدة والكيان السـياسى والاجتماعى الجديد ·· وعلى أن يحموا قائد هذا الكيـان الجديد ـ الرسول ، صلى الله عليه وسلم ـ ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبنـــاءهم ·· وعلى أن يحاربوا معه « الأسود والأحمر » ، أى كل من يعاديه ويعتدى عليه فى موطنه الجديد ·· ولقد عاهد الرسول هؤلاء النفر من الأوس والخزرج ، الذين مثلوا « الجمعية التأسيسية » للدولة الاسلامية العربية الأولى ، عاهدهم على أن يكون انتماؤه الى هذا الكيان الجديد انتماء مصير مؤبد ·· فجوابا على سؤالهم له :

ـ « يارســـول الله ، ان بيننـــا وبين الرجال ـ (يهود يثرب) ـ حبالا ، وانا قاطعوها ، فهل عسيت

ان نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟! » .

جوابا على هذا التساؤل ، قال صلى الله عليه وسلم، وهو يبتسم :

ـ « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ـ (أى منزلى فى منازلكم .. وقبرى فى مقابركم .. ومن طلب دمكم فقد طلب دمى !) ـ أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » !

ولقد طلب النبى من هذه « الجمعية التأسيسية » أن يختاروا منهم القيادة التى كانت بمثابة وزراء الرسول ومستشارى حكومته بين الأنصار .. فقال : « أخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم » ، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (٥١) .

● فلما هاجر النبى،صلى الله عليه وسلم،والمؤمنون من قريش الى المدينة ، وجد بها الى جانب من آمن بالاسلام من الأوس والخزرج ـ (الأنصار) ـ قطاعات من قبائل المدينة العربية قد تدينت باليهودية .. فاتفق وممثلى هذه القطاعات والجماعات التى لم تدخل بعد فى « الدين الجديد » على أن يدخلوا فى « الدولة الجديدة » ، كجزء

---

(٥١) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م .

من رعيتها السـياسية ، مع احتفاظهم بحرية الاعتقاد الدينى ‥ فتكونت الرعية السياسية للدولة الجديدة ، التى قاد الرسول حكومتها، من المؤمنين بالاسلام ـ مهاجرين وأنصار ـ ومن العرب الذين بقوا على يهوديتهـم ، ولهذه الدولة وضع الرسول دستورا بلغت « مواده » نحوا من الخمسين مادة ، ينظم كل شـئون الدولة فى السـلم والحرب ، وفى التعاون الأدبى والانفاق المادى ، وفيما هو خاص بكل قبيلة وما هو عام فى الرعيـة السـياسية الجديدة ‥ وفى الموقف من الخارجين على هذا الدستور ‥ وفى حرمة الوطن الجديد وحدوده ‥ وفى علاقات هذه الرعية الجديدة بمشركى قريش ، أعداء هذه الدولة الوليدة ‥ وفى المرجع عند الاختلاف على شأن من شئون هذه الرعية ودولتها ‥ الخ ‥ الخ . ولقد سمى المؤرخون هذا الدستور مرة ب « الصحيفة » ، ومرة ب « الكتاب » ‥ لأنه قد تحدث ، فى مواده ، عن هذه الرعية السـياسية لهذه الدولة الجديدة حينا باسم « أهل هذه الصحيفة » ، وحينا باسم « أهل هذا الكتاب » ...

ففى هذا الواقع الجديد ، وجدنا « أمة مؤمنة » ، تتألف من المهاجرين والأنصار ، الذين أقام عقد « المؤاخاة » بينهم رباطا وثيقا فى « الحق » وفى « سبل العيش » ‥ ووجدنا مع المهاجرين والأنصار هذه الجماعة العربيـة المتهودة ، التى دخلت مع المؤمنين فى اطـار « الرعيـة السياسة » ، أى « الأمة السياسية ـ والقومية » للدولة

الجديدة .. ووجدنا هذا الدستور ـ الذى هو غير القرآن دستور الجماعة المؤمنة ـ وجدنا هذا الدستور السياسى يتحدث عن أبرز جماعتين تتكون منهما هذه « الأمة السياسية الجديدة » فيقول عن المهاجرين والأنصار ـ أمة الدين ـ انهم « أمة واحدة من دون الناس » .. ثم ـ بعد أن عدد قبائلهم ـ يعدد قبائل العرب المتهودة ، ليخلص لتقرير ولادة هذا الكيان السياسى « والأمة السياسية » فيقول : « وأن يهود بنى عوف وبنى النجار وبنى الحارث الخ .. أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .. » .

ثم يقرر هيمنة الاسلام كدين ، وقيادة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فى هذا الكيان السياسى الجديد والدولة الوليدة ، فينص فى احدى « مواده » على : « .. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فان مرده الى الله والى محمد رسول الله ... » (٥٢)

---

(٥٢) انظر نص هذه « الصحيفة » فى أمهات كتب السيرة النبوية .. ولقد أورده النويرى فى [نهاية الأرب] جـ ١٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ . طبعة دار الكتب المصرية . وانظره كذلك فى [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٥ ـ ٢١ جمع وتحقيق : محمد حميد الله الحيدر آبادى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

فهى ، اذن « دولة » ‥ سبق قيامها « عقد تأسيس » ‥ وقام لهـا « دستور » لازالت مواده المحكمة الصياغة تجتذب اعجاب أرباب هذا الفن من الفقهاء الدستوريين ؟!‥

● واذا كانت أحداث الحـرب والقتـال ووقائـع الغزوات والسرايا والبعوث قد شـغلت الحيز الأكبر من صفحات **مصادر السيرة النبوية ومراجع التاريـخ التى أرخت للحقبة المدنية من عصر البعثة ‥ حتى لقد توارت ،** في هذه المصادر ، **معالم « الدولة » وأركان « الحكومة »** وأدوات « **الولاية** » ودوائر « **السلطنة** » **التى قامت للاسلام** والمسلمين فى هذه الحقبة ‥ اذا كان ذلك قـد حدث لمصادر السيرة ومراجع التاريخ ، **فان مصادر السـنة** النبوية وصـحاح الحديث النبوى وجـوامعه قـد ظلت **الديوان الأعظم** الذى بقيت فيه ، **متفرقة** ومتناثرة ، **معالم** هذه **الدولة** وأمارات « **محمد ــ الحاكم ــ** وقائد المجتمع ــ وسائس الأمة ــ ورجل الدولة » ٠

ولقد قيض الله لهذه القسمة ، التى تمثل المنطلق لتراث **الاسلام السياسى** ، **عالما** أبحر فى محيط السنة ، والتقط منه اللبنات التى أقامت معالم دولة المدينة شامخة وبارزة ومتألقة للناظرين ‥ وهذا العالم هو الخزاعى ، أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود بن موسى بن أبى غفرة الخزاعى (٧١٠ ــ ٧٨٩ هـ ١٠٢٦ ــ ١١٠٣ م) ‥ أما كتابه الذى تفرد فى تراثنـا بكونه

ديوان معالم دولة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فهو كتاب (تخـريج الدلالات السمعية) (٥٣) ·· ومن هذا الكتاب ، الذى هو جماع ما تناثر فى مصـــادر الحديث النبوى من أخبار « الدولة » ومعالمها وأركانها ودوائرها وأدواتها ندرك أننا بازاء « دولة » كاملة الأركان ، تامة المعالم ، قياسا على العصر والواقع الذى قامت فيه ونهضت لضبط شئونه وتلبية احتياجات الرعية فيه ··

فعلى رأس هذه الدولة كان القائد والأمير وولى الأمر والامام : محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ·· وكان له وزراء ومشيرون ، اشتهر منهـــم : هيئـة العشرة ـ المهاجرون الأولون ·· ونقباء الأنصار الاثنا عشر ·· وكان هناك من اختص «بالحجابة» ، و « السقاية » ، و «الكتابة» ، و « الترجمة » ، وحمل « الخاتم » ، و « امارة الحج » ·· الخ ·· الخ ··

وفى فقه الدين كانت هناك « عمالات » : « تعليم القرآن » ·· و « تعليم الكتابة والقراءة » ·· و «الافتاء» ·· و « تعليم الفقه » ·· و « امامة الصلاة » ·· و « الأذان » ·· الخ ·· الخ ··

---

(٥٣) انظر خلاصة هذا الكتاب فى [الأعمال الكاملة للطهطاوى] جـ ١٠ ص ٤٨١ ـ ٧٦٥ · وانظر نصه فى ثنايا كتاب [نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية] لعبد الحى الكتانى جـ ١ ، ٢ طبعة بيروت ، دار الكتاب العربى ·

وفى العلاقات الخارجيـــة والاعلام كان هنــاك : « السفراء » .. و « التراجمة » .. و « الشعراء » .. و « الخطباء » .. الخ .. الخ ..

وفى القطاع الحربي ، كان هناك ـ غير أمراء القتال وجنده ـ : « كتاب الجيش » .. و « فارضوا العطاء » .. و « العرفاء : رؤساء الجند » .. الخ .. الخ ..

وعلى النواحي كان هناك ولاة وأمراء للأقاليم .. وفيها كان القضـــاة .. وعمال الجبـاية والخراج .. وصاحب المســـاحة .. وعمال الزكاة والصدقات .. والخارصون للثمار .. وحارس الحمى .. الخ .. الخ ..

كما كان هناك « فارضوا المواريث » .. و «فارضوا النفقات » .. الخ .. الخ ..

كذلك كان هناك من يقوم بمهمة « المحتسب » .. و « صاحب العسس » .. و « متولى حراسة المدينة » .. و « العين : الجاسوس » .. و « السجان » .. و «المنادى» .. و « مقيم الحدود » .. الخ .. الخ ..

وعند الغزو ، كان هنـاك : « أمراء الجهاد » .. و « المستخلفون على المدينة » .. ومن « يستنفر النـاس للقتال » .. و « صاحب السلاح » .. و « صاحب اللواء » .. و « أمراء أقسام الجيش الخمســة » .. و « حراس القائد » ، عليه الصلاة والســـلام .. و « القائمون على

منـــاخ السفر » ·· ومن « يخذلون الأعداء » ·· ومن « يبشرون بالنصر » ·· الخ ·· الخ ··

وكثير من هذه الوظائف الادارية كان لها أربابها ، الذين عينهم الرســول فيها ابتداء ، أو أقرهم على مهنهم وحرفهـم ·· ومنهـم من عزله عن وظيفته وعين فيهـــا البديل ··

● ولقد كان المصطلح المعبر عن الامارة والسياسة وشئون **الدولة ، فى ذلك التاريخ** هو مصطلح « **الأمر** » ·· ومنـــه كان « **الائتمـار** » و « **الأمير** » ··· ولتمييز « الأمـر » عن « الوحى والدين الخالص » ، كان الأمــر شورى فى شرعة الاسلام ·· وكانت الشورى فريضـة الهية وجبت على الرســول ، صلى الله عليه وســلم : (وشاورهم فى الأمر) (٥٤) ·· وصفة للمؤمن ، بنص القرآن الكريم (وأمرهم شورى بينهم) (٥٥) ·· وكما **كان الرسول معصوما فى البلاغ عن الله سبحانه ، لا ينطق فيه عن الهوى ، لأن بلاغه هذا هو وحى يوحى ·· فلقد كان فى « الأمر : السياسة » مجتهدا ومستشيرا ·· فهو فى البلاغ الدينى : بشر يوحى اليه ـ وفى سياسة الدولة: بشر يجتهد ويستشير** ·· ومن هنا يأتى المعلم الثانى من معالم « دولة » الاســلام ، والذى به تتميز عن « دولة

---

(٥٤) آل عمران : ١٥٩ ·

(٥٥) الشورى : ٣٨ ·

الكهانة » و « الدولة الدينية » ، التى عرفتها الحضارات غير الاسلامية ، تستبد بها فئة خاصة بزعم أنها مفوضة للحكم بالحق بالالهى ..

فالدولة الاســـلامية ترعى روح الشريعــة الالهية الثابتة وتلتزم بالحدود القرآنية القطعية الدلالة والثبوت ، ومن ذلك يتكون لها اطـــار دينى ، يقف عند الكليات والمقاصد والغايات والفلسفات ، وفى داخل هذا الاطار تجتهد الأمة بواسطة الدولة لتساير بابداعها الفكرى فى النظم والقوانين حركة الواقع المتغير والمتطور دائما وأبدا ، بحكم قانون الله وسنته فى تطور واقع الحياة والمجتمعات .. فهى « دولة » فيها « الثابت ــ الدينى » وفيها « المتغير ــ المدنى » .. ومن هنـــا قامت « العلاقة » ، وفى ذات الوقت « التمايز » بين « الرسالة » و « السياسة » .. بين « الدين » و « الدولة » فى هذا البنـاء الاســلامى الفريد ! ..

واذا كان المعلم الأول من معالم دولة المدينـــة ــ والمتمثل فى مظاهرها وقسماتها وأركانها وأدواتها ــ هو الرد المفحم والنقض الهادم لدعوى الذين زعموا ويزعمون « علمانية الاسلام » .. فان هذا المعلم الثـــانى من معالم هذه الدولة ــ والمتمثل فى تمييزها بين ما هو دين ثابت وما هو سياسة متطورة ــ وهو « التمييز » الذى ينكر « علمانية فصل الدين عن الدولة » انكاره « كهانة الدولة الدينية وتوحيدها للسلطتين » ــ .. ان هذا المعلم هو

الرد المفحم والنقض الهادم لدعوى الذين زعموا ويزعمون أن « الاسلام الدولة هو حكومة الله وحده أو حاكميته وحدها » ! ..

فعندما يقول المستشرق دافيد دى سانتيلا : « **ان الاسلام هو دولة الله المباشرة** ، هو حكم الله الذى يرعى شعبه بعينه .. **ان** أساس الوحدة الاجتماعية ، المسمى فى المجتمعات الأخرى « بولس » Polis و « كيفتاس » Civitas ; أى الحكومة) ، يمثله (الله) عند الاسلام ، فالله هو الاسم الذى يطلق على السلطة العاملة فى حقل المصلحة العامة . وعلى هذا المنوال يكون بيت المال ، هو : (بيت مال الله) ، والجند هم : (جند الله) ، حتى الموظفون العموميون ، هم : (عمال الله)، ان الله ، فى الشرع الاسلامى يقوم مقام سلطة المدينة Civitas وهو المبدأ الرومانى القديم .. **فالله وحده يقيم الأمراء ، والله وحده يجردهم من الامارة والسلطان » (٥٦) ؟!**

عندما يقول « سانتيلا » ذلك .. نقول له : ليس

---

(٥٦) [القانون والمجتمع] ص ٤٠٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ . [ويتبع سانتنلا فى هذا الرأى العلمانيون الذين يتوسلون بهذا الرأى الى أن هذا النظام الاستبدائى حكومة الله ، قد انتهى ، ومن المحال عودته .. فالعلمانية هى الحل . انظر : مصطفى مرعى . مجلة [المصور] العدد ٣١٠٤ فى ٦ ابريل سنة ١٩٨٤م . ود. محمد أحمد خلف الله . جريدة [الأهالى] ص ٥ عدد ١٤٠١ فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٨٤م .

هذا هو الاسلام ‥ فلقد رأيته بعين الكهانة الكنسية الكاثوليكية ، فأسقطت عليه الواقع الذى أقامته فى أوربا العصور المظلمة وأقصى ما يمكن أن يعتذر عنه لصاحب مثل هذا التحليل هو أنه لم ير من الاسلام الا نظرية الامامة الشيعية ، ففيها وحدها « الله وحده هو الذى يقيم الأمراء » ‥ وليس هذا هو الاسلام ! ‥

نقول ذلك ولدينا عشرات البراهين ، المستمدة من انجاز الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، على «جبهة الدولة». عندما التزم انجازه السياسى هذا « بالتمييز » دوما بين ماهو « دين خالص » وبين ما هى « سياسة » تقيم «الدولة» وتقودها وتنظم المجتمع وتطور عمران الحياة الدنيا ‥

واذا كان المقام لا يسع الافاضة فى ايراد هذه البراهين ، فاننا نكتفى منها بالبعض ، الحاسم فى الدلالة على هذا الذى نقول .

١ – ففى غزوة بدر ‥ وبعد أن عسكر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بجيش المسلمين ، استعدادا للقتال ‥ سأله المسلمون ، بلسان الحباب بن المنذر ، عن « طبيعة » قراره هذا ؟ هل هو « دين ». ، فله الطاعة والتسليم ؟ أم هو « سياسة ورأى » ، فيخضع للشورى والبحث والتعديل ؟؟ ‥ سأله الحباب :

« – يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزل أنزلكه الله . فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ ‥ » .

ففال ، صلى الله عليه وسلم :

– « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » ..

فقال الحباب :

– « يا رسـول الله ، ان هـذا ليس لك بمنزل ! فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم – (قريش) – فننزله ، ونغور ما وراءه من القلب – (الآبار) – ثم نبنى عليه حوضا ، فنملؤه ماء ، ونشرب ولا يشربون .. »

فاستحسن الرسول رأى الحباب ، وفعله (٥٧) !

فهنا « تمييز » – من المسلمين ومن الرسول – بين ما هو « دين خالص » وما هو « سياسة لأمر الجيش » ، كشأن من شئون « الدولة » و « الدنيا » ..

٢ – وفى غزوة الخندق – (سنة ٥ هـ) – .. عندما اشتد الأمر على المسلمين فى المدينـة المحاصرة ، سعى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الى عقد « معاهدة » مع قادة « غطفان » وأهل « نجد » ، يتخلون بموجبها عن حلفهم مع قريش ، ويفكون حصـارهم للمدينة ، لقـاء حصولهم على ثلث ثمار المدينة .. وبعد أن تمت المفاوضات ، وأعد مشروع المعاهدة ، وقبل امضائه ، استشار الرسول قائدى الأنصار : سعد بن معاذ ، وسعد بن عباده .. فدار بينهم هذا الحوار ، الذى بدأه سعد ابن معاذ :

---

(٥٧) ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسـير] ص ١١٣ . تحقيق : د. شوقى ضيف . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

ـ « يارسول الله ، أهذا أمر تحبه فنصنعه لك ؟ أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع؟ أو أمر تصنعه لنا؟؟ .

ـ بل أمر أصنعه لكم . والله ما أصنعه الا لأنني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ! ..

ـ يا رسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان .. وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة الا بشراء أو قرى ـ [ضيافة] ـ فحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟! .. والله لا نعطيهم الا السـيف حتى يحـكم الله بيننـا وبينهم ! .. » .

فنزل الرسول ، مسرورا ، على رأى أصـحابه ، وعدل عن الرأى الذى كان قـد ارتآه .. وقال لقـادة عطفان : انصرفوا ، فليس لكم عنـدنا الا السيف .. وتناول الصحيفة ـ [مشروع المعاهدة] ـ فمحاها (٥٨)!

فهنا ، أيضا ، تمييز من الصحابة ، قادة الأنصار ، عند مداولاتهم مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بين « الدين » وبين « السياسة » .. فلما لم يجدوا ما رآه الرسول وأشار به « وحيا ودينا خالصا » ، يستوجب السمع والطاعة ، قدموا مشورتهم واجتهادهم ، الذى بدل الموقف ، لأن القضية سياسة وحرب واقتصاد .. وعلى رأيهم نزل الرسول ، عليه الصلاة والسلام ..

---

(٥٨) المصدر السابق . ص ١٨٤ .

٣ ـ وقصة الرسول مع تأبير نخل المدينة شاهد فى هذا المقام •• فبعد هجرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم الى المدينة وجد أهلها « يلقحون » نخلها » •• فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه فى الأنثى • قال : ما أظن ذلك يغنى شيئا • فبلغهم ، فتركوه •• فصار الثمر شيصا •• » •• فلما راجعوه فى الأمر ، قال : « **انما هو الظن ، ان كان يغنى شيئا فاصنعوه ، فانما أنا بشر مثلكم ، وان الظن يخطىء ويصيب ، ولكن ما قلت لكم : قال الله ! •• فلن أكذب على الله •• ما كان من أمر دينكم فالى ، وان كان شأنا من أمر دنياكم فشأنكم به • أنتم أعلم بأمر دنياكم ! •• (٥٩)** » •

فهنا ، بالنص لا بمجرد الاستنتاج ، تمييز حاسم وواضح وقاطع بين ما هو « سياسة ودنيا » وبين ما هو « وحى ودين » ••

٤ ــ ويدخل فى هذا الباب •• باب « السياسة والرأى والاجتهاد » انجاز الرسول ، صلى الله عليه وسلم فى ميدان « القضاء » •• فلقد كانت تعرض عليه المنازعات ، فيستوضح البينات ، ويجتهد ، ثم يقضى « بالرأى » ، لا بالوحى الدينى ، الذى لا ينطق عن الهوى •• ولذلك ، فلقد تحدث الى أصحابه منبها لهم على أن

---

(٥٩) رواه مسلم وابن ماجة وابن حنبل •

قضاءه ليس وحيا حتى يصادف الصواب مهما خفى ، ومن ثم فهو ليس « دينا » ، وانما هو من « الرأى والاجتهاد وأمور الدنيا » المتميزة عن شئون « الدين » .. تحدث اليهم فى هذا الأمر فقال : « انكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، **وانما أقضى له بما يقول .. فأنا بشر أقضى له على نحو ما أسمع** ، فمن قضيت لـه بشىء من حق أخيه بقوله .. **فأظنه صادقا** .. فانمـا أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها ! (٦٠) » .

فهو هنا ، صلى الله عليه وسلم ينبه على أن بشريته تجعله يقضى بناء على ما يسمع من الحجج والبينات ، وأنه قد يقضى بناء على « ظنه » صدق طرف من طرفى النزاع ... وكل ذلك يخرج قضاءه من دائرة « الدين » الموحى به ، المبرأ من الخطأ والمنزه عن الظن ، ويدخل به الى دائرة « الرأى والاجتهاد » ، دائرة « الدولة والسياسة » لأمور الناس ! ..

٥ ـ بل اننا لنجد لرسول الله ، صلى الله عليـه وسلم ، موقفا صريحا يدعو فيه صحابته وقادة جيوشه الى التمييز ما بين « حكم الله » سبحانه ، الذى هو قضاء دينى قد اختص به ، وأودع الوحى بعضـا منه ، وبين ما هو سياسة وحرب واقتصاد وشئون تتعلق بالمجتمع والدولة ، مما لم يرد فيها نص قطعى الدلالة والثبوت ..

---

(٦٠) رواه ابن حنبل .

ذلك أن تقديرنا للأمور وقرارنا فيها هو « حكمنا نحن »، وليس لانسان ، حتى ولو كان صحابيا جليلا أو سيفا من سيوف الله أو أميرا من أمراء رسوله ، أن يدعى أنه يحكم بين الناس بحكم الله ، ولا أن قراره هو كلمة الله ..

ينهى الرسول صحابته عن انتحال هـذه « السلطة الدينية » الالهية ، ويطلب من قادة الجيوش وأمراء السرايا أن تكون معاهداتهم مع من يحاربون ويصالحون معاهدات واتفاقات موضوعة فى الاطار البشرى والسياسى، دون أن يزعم لها نسبة تخرجها من دائرة « الرأى والاجتهاد » وتضفى عليها قداسة « حكم الله » ! .. فلقد روى عنه ، صلى الله عليه وسلم ، أنه « كان اذا أمر ـ [بتشديد الميم المفتوحة] ـ أميرا على جيش أو سرية أوصاه : **اذا حاصرت أهل حصن ، فارادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك، فانك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا** (٦١) » ؟! .

فهو هنا يدعو الى التمييز بين حكم الله وقضائه ـ المأخوذ من النصوص القطعية الدلالة والثبوت وحدها ـ وبين حكم الناس وسياستهم وحربهم وقضائهم ، وينهى عن أن يضفى البشر على أحكامهم الاجتهادية صبغة الهية تمنحها قداسة أحكام الله ! ..

(٦١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وأبو داود وابن ماجة والدارمى وابن حنبل .

ولو لم يكن فى سنته ، صلى الله عليه وسلم ، غير هذا الحديث الشريف لكفى فى رفض الاسلام للسلطـــه الدينية الكهنوتية ، ولقام دليلا على خطل الرأى الذى زعم أصحابه أن حكومة النبى وسياسته للدولة انما كانت هى « حكومة الله » و « حاكمية الله » التى تجعل « الدولة والسياسة » « دينا خالصا » فتنزع من الأمة الحق فى أن تكون مصدرا للسلطة والسلطان فيما لم يسبق فيه حكم الله ! ..

***

ولما كانت السنة النبوية ، التى مثلت « ديوان سياسة الدولة الاسلامية » على عهد البعثة ، قد امتلأت بالمواقف والنصوص التى ضربنا منها الأمثال الشاهدة على التمييز ـ دون فصل ـ بين ما هو « رسالة ووحى ودين » وما هى « سياسة ورأى واجتهاد ودولة » فى انجاز الرسول ، عليه الصلاة والسلام .. فلقد وجدنا كثيرين من علماء الأصول وأئمة الحديث النبوى يفردون المباحث التى قسمت هذه السنة الى :

(أ) سـنة تشريعية ، تمثل الثوابت الدينية . الواجب الالتزام بنصهـا ، لتعبيرها عن الثـوابت التى ضمنت وتضمن للأمة تميزها الحضارى ، رغم اختلاف الزمان والمكان ..

(ب) وسنة غير تشريعية ، تمثل انجاز الرسول فى سياسة الدولة .. وفى القضاء ، وكل ما سكت عنـــه « الوحى الدينى » مما تعلق بالمتغيرات التى تتبدل وتتطور باختلاف الزمان والمكان ..

لقد ازدانت مباحث الكثير من علماء الأصول وأئمة الحديث فى تراثنا بالآثار الفكرية التى عنيت بهذا المبحث الهام .. بل ومنهم من أفرده بالتأليف فى كتاب خاص !.. وفى هذا المقـام تكفى اشارتنــا الى اثنين من هــؤلاء الأعـــلام :

● فالأمام القرافى ، أبو العباس أحمد بن ادريس [٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م] يجعل هـــذه القضية محور كتابه الهام [الاحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والامام] ... وفيه يقسم السنة النبوية الشريفة الى أقسام أربعة :

أولها : تصرفات الرسول « بالرسالة » أى بحكم كونه رسولا يبلغ رسالة ربه ويبشر وينذر بوحى السماء .

وثانيها : تصرفات الرسول « بالفتيا » ، أى المتعلقة بالفتاوى التى يفسر بها غامض الوحى ويفصل بواسطتها مجمله .

وثالثها : تصرفات الرسول « بالحكم » ، أى القضاء. وهى التى تتعلق بقضائه بين الناس فى المنازعات .

ورابعها : تصرفاته « بالامامة ، أى السياسة » ، وتشمل كل أقواله وأفعاله واقراراته الخاصة بالدولة والسياسة في مختلف الميادين والمجالات .

وبعد هذا التقسيم ، يحدد الامام القرافى أن القسمين الأول والثانى من السنة — [أى التصرفات بالرسالة ، وبالفتيا فى الدين] — هما تبليغ وشرع ، يدخلان فى باب « الدين » .. أما القسم الثالث — [أى تصرفات الرسول بالحكم — القضاء —] — فليست دينا ، اذ هى مغايرة لتصرفاته بالرسالة ، وبالفتيا .. ومن ثم يجب الوقوف بها عند محل ورودها ، لأن أحكامه فيها مترتبة على ما ظهر للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من البينات التى حكم وقضى بناء عليها ووفقا لها .

وكذلك الحال مع تصرفاته وسنته ، صلى الله عليه وسلم ، فى الامامة ، التى هى رئاسته للدولة وسياسته لشئونها العامة والمتنوعة وفق المصلحة فيما هو مفوض اليه .. وفى هذا القسم تدخل الآثار والسنن والمأثورات التى تتحدث عن : قسمة الغنائم ، والتصرفات المالية المتعلقة بالأرض والزراعة والتجارة والحرف والصناعات .. الخ .. وتجييش الجيوش وتجهيزها وقتالها .. وكذلك عقد المعاهدات .. والأمور الادارية المتعلقة بتعيين القادة والأمراء والولاة والقضاة والعمال .. الخ .. الخ ..

ففى هذين القسمين — [الثالث والرابع] — من

أقسام السنة النبوية يتحقق التأسي والاقتداء بالرسول وسنته بالتزامنا المبادىء والمعايير الكليـــة والمقاصـــد والغايات التي حكمت تصرفات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، في كل من « القضاء » و « السياسة » ..

فليس « الحكم والقضاء » ، وليست « السياسة » وشئون المجتمع السياسية دينا وشرعا وبلاغا ، يجب فيه الالتزام بما في السنة النبوية من وقائع وأوامر ونـــواه وتطبيقات ، لأنها أمور تقررت بناء على بينات قد يتبين لنا غيرها ، وعالجت مصالح هي « بالضرورة » متطـــورة ومتغيرة .. وذلك على عكس ما هو « دين » و « بلاغ » ، من هذه السنة النبوية الشريفة ، مثل ما جاء منها متعلقا بالرسالة ، وبالفتيا ، فان الاتبـــاع فيه واجب ديني ، والتقيد بأحكامه شرط لصحة ايمان المؤمن بالاسلام (٦٢) .

ان صحابة رسول الله لم يغيروا شيئا من « سنته الدينية » ، بينما أعملوا رأيهم واجتهادهم في سننـــه السياسية والادارية ، فوجدنا الولاة والعمـــال الذين ولاهم الرسول وظائف الدولة ، كعمـــال على الأقاليم ، وجباة للأموال والصدقات ، وكسفراء وكتاب ومترجمين .. الخ .. وكذلك سننه في تنظيم الجيـــوش

---

(٦٢) القرافي [الاحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والامام] ص ٨٦ ـ ١٠٩ . تحقيق : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . طبعة حلب سنة ١٩٦٧م .

وأساليب القتال وادارة شئون الدولة .. الخ .. قــد أصابهم وأصابها تغييرات وتغييرات .. فكان ذلك شاهدا من شهود التمييز بين ما هو سياسة ودنيا وما هو وحى ودين .. وكان ، أيضــا ، عاملا حــدد نطــاق التأسى ومضمونه فى الســنة النبوية .. ووجدنا أسلافنا من علماء الكلام والأصول . يقررون : ان « التأسى بالرسول ليس بواجب الا فى الشرعيات المخصوصة ، التى قد أمنا منه وقوع الخطأ فيها ، دون غيرها .. » (٦٣) !

● وبعد الامــام القرافى ، أتى الفقيه المجــدد ، والمجتهد الأصولى ، والامام المحدث : ولى الله الدهلوى ، أحمد بن عبــد الرحيم **الفاروقى** [١١١٠ ــ ١١٧٦ هـ ١٦٩٩ ــ ١٧٦٢] ليقرر ذات الحقيقة وذات المبادىء فى كتابه [حجة الله البالغة] ، **الذى قسم** فيه السنة النبوية الى قسمين :

أولهما : ما سبيله تبليغ الرسالة ، وفيه قــوله تعالى : [وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنــه فانتهوا] (٦٤) .. ويدخل فى هــذا القســم : علوم الآخرة ، وعجائب الملكوت ، وشرائع ضبط العبادات .. وبعض هذه **العلوم وحى** ، وبعضها اجتهاد جاء بناء على ما علمه الله من مقاصد الشرع ، فهو بمنزلة الوحى ..

---

(٦٣) قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد [المغنى فى أبواب التوحيد والعدل] جـ ١٥ ص ٢٨٦ . طبعة القاهرة .

(٦٤) الحشر : ٧ .

وثانيهما : ما ليس من باب تبليغ الرسالة ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : « « انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » وقوله ، في قصة تأبير النخل : « فاني انما ظننت ظنا ، ولا تؤاخذوني بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به ، فاني لم أكذب على الله » (٦٥) ..

وفي هذا القسم تدخل : علوم الدنيا : الطب ، والزراعة ، والصنائع ، والحرف ، وكل ما كان سنده ومصدره التجربة .. والأمور المتعلقة بالسياسة ، من كل « ما يأمر به الخليفة » في الحرب والغنائم .. الخ .. الخ .. وكذلك أمور القضاء ، لأنها مبنية على البينات والأيمان (٦٦) ..

فكل ما خرج عن القسم الخاص بتبليغ الرسالة الدينية ، من السنة النبوية الشريفة ، فليس من ثوابت « الدين » ، وانما هو من متغيرات « الدنيا والسياسة » ، التي على العقل المسلم أن يتناول موضوعاتها ابتداء بالنظر والاجتهاد .. على أن يكون نظره فيها واجتهاده محكومة بالاطار الديني المتمثل في الحدود التي هي قطعية الدلالة والثبوت ، وفي روح الشريعة ومقاصدها ، وفي تحقيق

---

(٦٥) رواه مسلم وابن حنبل .

(٦٦) ولي الله الدهلوي .[حجة الله البالغة] جـ ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ .

المصلحة لمجموع الأمة ودفع الضرر والضرار عن جمهور المسلمين ..

***

ان الاسلام : « دين » و « دولة » .. وان « واو » العطف التى تعطف « الدولة » على « الدين » كما تفيد « المغايرة » ـ وهذا هو معناها اللغوى ـ فانها تفيد قيام الصلة والاشتراك ..

فهناك تمايز بين « الدين » و « الدولة » .. بين « الرسالة » و « السياسة » ، وفى ذات الوقت هناك صلات وخيوط ووشائج تربط بين « الرسالة » و « السياسة » .. بين « الدين » و « الدولة » بروابط الحدود الاسلامية ومقاصد الشريعة التى شرعها الله .. وهذا هو النهج الوسطى الذى ميز ويميز موقف الاسلام فى هذه المعضلة الفكرية ، التى تطرف ازاءها الكثيرون ، وخاصة فى الحضارات غير الاسلامية ، فقال فريق منهم بالكهانة التى جعلت « الدولة » دينا ، والسلطة فيها دينية لها قداسة الدين وثباته المستعصى على التطور والتغيير ... وقال فريق آخر بالعلمانية ، التى فصلت « الدين » عن « الدولة » ، وأطلقت العنان لعقل الانسان وسلطة البشر فى سياسة المجتمع ، دونما حدود ، حتى لو أحلت الحرام وحرمت الحلال ...

واذا كان النهج الاسلامى قد برىء ويبرأ من هـذا الغلو .. فان مصدره ومنطلقه كان ولا يزال : الفقـه والوعى بطبيعة العلاقة بين « الرسالة » و « السياسة » فى الانجاز النبوى .. انجاز [محمـد : الرسـول ـ السياسى] ؛ عليه الصلاة والسلام (٦٧) .

---

(٦٧) لمن يبغي المزيد من التفصيل حول آرائنـا فى علاقـة الدين بالدولة هناك كتبنا . [الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية] و [المعتزلة وأصول الحكم] و [المعتزلة والثورة] و[الاسلام والسلطـة الدينيـة] و [الاسلام بين العلمانية والسلطة الدينية] و [نظرية الخلافة الاسلامية] و [العلمانية ونهضتنا الحديثة] .

٢

الاسلام والدولة القومية

[الفكر الاسلامى والوحدة العربية]

العلاقة فى كلمات

كما واجهت حركة « الجامعة الاسلاميـــة » ـــ فى العقود الأولى من هذا القرن العشرين ـــ : « قوميـــة » علمانية ، تقطع الصلات بين « العروبة » و « الاسلام » ... تواجه « العروبة » اليوم « شعوبية » جديدة تناصبها العداء ـــ تحت رايات مموهة بالاسلام ـــ قاطعة مـــا بين « العروبة » و « الاسلام » من صلات وعلاقات ..

الأمر الذى يجعل الأمة تواجه الخطر « القـديم ـــ الجديد » .. خطر التشرذم والانقسام الحـــاد فى قـوى الأصالة الممثلة لذاتيتها الحقيقية ..

(أ) قوميون يديرون ظهرهم للاسلام ! ..

(ب) واسلاميون ينفرون من العروبة كل النفور !..

واذا كانت هذه الدراسة تعتقد بوجـــود « أرض مشتركة » و « علاقة عضوية » ما بين العروبة والاسلام ·· فانها تنبه الى أن « التناقض » المزعوم بينهما انما هــو مفتعل ·· وخاطىء ·· وشاذ ·· وذلك فضلا عن ضرره الكبير ··

هو كذلك اليوم ·· كما كان دائما عبر تاريخنــا الحضارى العريق والطويل ··

وليس أدل على شذوذ دعوى « التناقض » هـــذه بين « العروبة » و « الاسلام » من · تأمل هذه المأثورات التى تكشف فكر الأمة حول علاقة العروبة بالاسلام ·· منذ ظهر الاسلام ·· وحتى العصر الذى نعيش فيه ···

يقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم :

– [الكفر فى العجمــة ··· ولا يبغض العـــرب الا منافق ··· واذا ذل العرب ذل الاسلام] ·

حديث شريف

– [انه لا سبيل الى تمييز أمة عن أخرى الا بلغتها ··· والأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب · وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتــاج معه الى دليل أو برهان] ·

جمال الدين الأفغانى

ـ [كان الاسلام عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا .. فلما سيطر الأعاجم على الدولة استعجم الاسلام وانقلب أعجميا] .

محمد عبده

ـ [ان العرب هم الوسيلة الوحيدة لجميع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية] .

عبد الرحمن الكواكبى

ـ [ان العرب قد رشحوا لهداية الأمة . وان الأمم التى تدين بالاسلام ، وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الاسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ويهتدون مثلهـا بهدى الاسـلام . ولقـد كان محمد ، صلى الله عليه وسلم : رسـول الانسانية ، ورجل القومية العربية والأمة العربية فى آن واحد] .

عبد الحميد بن باديس

ـ [لقد نشأ الاسلام عربيا ، ووصل الى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه بلسان عربى مبين ؛ وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان .. فالعرب هم أمة الاسلام الأول ، وشعبه المتميز .. ولن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة العرب ونهضتها .. وليس فى الدنيا جامعة أقوى وأقرب من جامعة تجمع العربى ـ بالعرب ، فاللغـة واحدة ، والأرض واحدة ، والآمال واحدة ، والتـاريخ

واحد . ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لاحيــاء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها] .

حسن البنــا

***

[ليس لعنصر القومية حظ فى ايجاد دولة الإسلام وتركيبها] ؟! .

أبو الأعلى المودودى

– [القومية : صنم من الأصــنام وطاغــوت من الطواغيت] ؟! .

سيد قطب

[ان القومية : هى نوع من أنواع العنصرية المرفوضة فى الاسلام] ؟! .

عبود الزمــر

***

هكذا جسدت وتجسد هذه المأثورات مسيرة الفكر الاسلامى فى موقفه من علاقة « العروبة » « بالاسلام » .. وموقف الاســلام الدين من الدائرة القومية التى ينتمى اليها المتدينون بهذا الدين ..

فما هو وجه الصواب فى هذا الموضوع .. والقضية المثارة فى الفكر الاسلامى .. والمطروحة – بالحاح – على العقــل المسلم .. والمتفجرة فى الواقع الذى يعيشــه المسلمون ؟؟ .

قضية مصير

هكذا .. اختلفت وتختلف الآراء حول موضوعنا : علاقة « العروبة » بـ « الاسلام » .. وموقف « الاسلام » من « القومية » .. وموقع « الفكر الاسلامى » من « فكر ، وحركة الوحدة العربية » على وجه التحديد .

ويزيد من أهمية هذه القضية ، ومن الحاحها على العقل العربى والمسلم ، ان الخلاف فيها ليس مجرد خلاف حول قضية « نظرية » و « فكرية » ، مهما كان مردودها الفكرى والنظرى .. وانما هو خلاف يتعدى حدود « النظر والفكر والتأمل » فى قضية من القضايا « التاريخية » ، الى حيث يصبح ـ ولقد أصبح بالفعل ـ صراعا « حاضرا » حول « المستقبل » و « المصير » ؟! ..

بل ان هذا الخلاف القائم حول علاقة « العروبة » و « القومية العربية » و « حركة الوحدة العربية »

بالاسلام ، لم يقف عند حدود « الخلاف الداخلى » بين فرقاء من أبناء الأمة ، وانما رأيناه ، ومازلنا نراه سلاحا بيد القوى الخارجية المعادية ، تاريخيا وحضاريا ، لهـذه الأمة ، تستخدمه بمهارة وخبث شديدين فى الحيلولة بين أمتنا وبين امتلاك عوامل الوحدة والقوة والنهوض ! ..

● فالاستعمار الغربى ، منذ العقود الأولى لموجة غزوته الحديثة ، قد استظل باعلام « الاسلام » ورايات « الخلافة الاسلامية » ، وهو يضرب أول مشروع للاحياء والتوحيد العربى فى تاريخنا الحديث ؟! ..

فعندما تحولت الامبراطورية العثمانية الى « دولة الرجل المريض » ، وامتلأ جدارها — بسبب الاستبداد والظلم والفقر الحضارى — بالثغرات التى زحف منهـا الاستعمار ، ينهب بلادنا بالامتيازات ، ويقتطع أقاليمها بالاحتلال ... حدث أن حاولت مصر الحديثة ، تحت قيادة محمد على باشا [١١٨٤ — ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ — ١٨٤٩م] انقاذ الولايات العربية العثمانية من وضع ومصير «التركة» التى يحرس الاستعمار الغربى تخلفها وتشرذمها انتظارا للحظات الالتهام والاقتسام ... ولقد تميزت هـذه المحاولة « بطابع عربى » لا شك فيه .. فقائد الجيش الذى حارب العثمانيين لاستخلاص المشرق وتوحيده مع مصر والسودان ، ابراهيم باشا [١٢٠٤ — ١٢٦٤ هـ ١٧٩٠ — ١٨٤٨ م] هو الذى أجاب ، عنـدما سئل ، أثناء حصاره « لعكا » سنة ١٨٣٢ م :

ـ « الى أى مدى تصـــل فتوحاتك .. اذا فتحت عكــا ؟ ..

ـ الى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم واياهم باللسان العربى » (١) ! ..

وفى مواجهة هذا « المشروع العربى » للنهضـــه والاحياء ، لم يتورع الاستعمار عن أن يتقـــدم ليحاربه ويهزمه تحت رايات « الاسلام » ، متحالفا مع « الخلافة الاسلامية » ، الممثلة يومئذ فى سلاطين آل عثمان ؟! ..

● وبعد أن اطمأن الاستعمار الى هزيمة مشروع مصر « العربى » ، وكرس ذلك بحصار مصر داخل حدودهـا الاقليمية بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م .. لم تعد تقلقه الأفكار ولا المشاريع « العربية » ، طالمـا كانت غـــير توحيدية ؟! ..

وخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر .. وعندما انبعثت من « الواقع العربى » ، بواسطة « قيادات عربية » دعوات وشعارات « الجامعة الاسلامية » ، كانت مشاريع « الاستقلال ـ الاقليمية » و « عروبة : التشرذم والتجزئة » هى البديل الذى سعى الاستعمار الى تشجيعه ، كى يجهض بها « جامعة اسلاميـــة » تقودها « الأمـــة

---

(١) الرافعى ، عبد الرحمن [عصر محمد على] ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥١م .

العربية » فى نهضة تنقذ بها تركة دولة الرجـل المريض من مخططات الاستعمار ·· فوجدنا رجلا مثل بلنت ، ولفرد سكاون S. Blunt [١٨٤٠ – ١٩٢٢ م] يسعى ، بالدعاية وعروض التمويل ، لمساعدة مناطق فى شبه الجزيرة العربية « للاســـتقلال » عن الامبراطوريه العثمانية ، تحت أعلام « العروبة » ، وفى مواجهـــه رايات « الاسلام » ؟! ··

وعندما عرض « بلنت » أفكاره هذه على الشـــيخ محمد عبده [١٢٦٦ – ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ – ١٩٠٥ م] – وكان صديقه – لم ينكر محمـــد عبـده حق العرب ·· وجدارتهم – فى الاستقلال ·· لكنه رأى هذا المشروع ، بصورته تلك ، وفى ملابساته السبيل لتمزيق العرب والأتراك معا ، والمقدمة لابتلاعهما من قبل الاستعمار ! ·· ولقد عبر الرجل عن هذه الحقيقة بكلمات جاءت « نبوءة سياسية » لمـا حدث بعد ذلك بسنوات ·· قال : « ان العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عنـــد العرب ، فاذا شـــعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، **حتى اذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة ، الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين ، أو على أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام ، فتكـــون العاقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حيـــاته ···** اننى أكره أعمال السلطان العثمـــانى ، لجبنه الخالع ،

وتسلط المشايخ الذين قربهم .. لكن ، لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءا ، **فانها سياج فى الجملة** ، واذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود ، بل أقل من اليهود ، فـان اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم ، وهو المال ، ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء ... **انني فى يأس تام من طبقة الأمراء والحكام .. فلا يرجى منهم خير .. لكن ، كيف نيأس من الاصلاح ؟!.. ان حالة أوربة كانت شرا من حالتنا فى الجهل ومقاومة العلم ؟! ..** » (٢) .

ففى ذلك الظرف التاريخى ، أبصر محمد عبده أن هدف الاستعمار هو ضرب العروبة والاسلام جميعا .. فرايات العروبة التى يلوح بها ليست رايات الوحدة ، وانما هى رايات « التشرذم » و « الاقليمية » ، والهدف هو استغلال هذه الرايات لضرب حركة الجامعة الاسلامية ، التى دعت الى نهضة المسلمين من « غانة الى فرغانة » ، بقيادة العرب ، بعد أن ثبت عجز الأتراك ؟!

● ونحن اذا تأملنا تلك المأساة التى صنعها لنا وبنا الاستعمار خلال سنوات الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ ـ ١٩١٨ م] وفيما أعقبها من سنوات .. سنرى صدق

---

(٢) [الأعمال الكاملة للامام محمد عبده] جـ ١ ص ٣٧٥ ، ٧٣٣ . دراسة وتحقيق . د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

حدس الشيخ محمد عبده فى كلماته التى سبقت تلك المأساة بما يقرب من عشرين عاما ..

ففى مواجهة « الاسلام » وشعار «الجامعة الاسلامية»، الذى رفعت الدولة العثمانية وأنصارها أعلامــه ، رمى الاستعمار بكل ثقله ـ فى الظاهر ـ الى جانب شعـــار « استقلال العرب » .. أمـا فى الواقـع والحقيقة فـانه فرض التشرذم والاقليمية على المشرق العـــربى ، وفق مخطط معاهدة « سيكس ـ بيكو » ، ثم ضن على هــذا التشرذم بالاستقلال ففرض عليه الاستعمار ، تحت اسم « الانتداب » ، فاكتملت سيطرته على الوطن العربى من الخليج الى المحيط ، ثم تقدم فألغى « الخلافة ـ الرمز » ، كى ينهى ويقبر أية آمال فى اصلاحها كرباط جامــع وموحد ، فاسفر عن وجهه المعادى لكل من « العروبة » و « الاسلام » ، بعد أن مكث طويلا يضرب الواحد منهما بالآخر ، وفق الظروف ، كى يحول بينهما وبين الصيغة المثلى للعلاقة الصحية ، الكافلة قوة ونهضة العرب والمسلمين على السواء ! ..

وحتى مبادىء الرئيس الأمريكى « ولسن » [١٨٥٦ ـ ١٩٢٤ م] الأربعة عشر ، التى أعلنها سنة ١٩١٨ م ، والتى خدع معلمونا بها تلامذة مدارسنا ، ولا يزالون ، قرابة قرن من الزمان ، عندما قالوا انها قد بشرت كل الشعوب بحقها فى تقرير المصير .. حتى هذه المبادىء نراها ، فى

الحقيقة ، قد ميزت تمييزا عنصريا ، بين الشعوب ٠٠ ففى اوربا دعت الى تسوية حدود ايطاليا والنمسا والمجر وشبه جزيرة البلقان وفق « المعيار القومى » ٠٠ أما فى شرقنا العربى والاسلامى ، فهى قد دعت الى قصر حكم الأتراك على الرعايا من جنسهم ٠٠ ثم تركت ، بل وناصرت مخطط « سيكس — بيكو » ، والمشروع الصهيونى ، وقرارات « الانتداب » ٠٠ فاجتمعت كلمة الغرب الاستعمارى على ضرب « الاسلام » و « العروبة » جميعا ! ٠٠

● وعلى ذات الدرب تواصلت خطوات الاستعمار ٠٠ بل — ومع الأسف الشديد — خطوات قوى محلية ، ابتلعت طعم « التناقض ، بل والعداء ، ما بين العروبة والاسلام » — **فرأينا أعداء المشروع القومى العربى ، الذى قاده جمال عبد النـاصر [١٣٣٦ — ١٣٩٠ هـ ١٩١٨ — ١٩٧٠] يستظلون برايات « الحلف الاسلامى » ، وبرزت ، فى حقبة هذا المشروع القومى العربى — كما لم يحدث من قبل فى تاريخنا الحديث — شعارات ترفعها حركات اسلامية تصف القوميـة العربيـة والوحـدة العربيـة بالعنصريـة ، بل وبالشعوبية ؟! ٠٠ وتتحدث عن رفض الاسلام للقومية ، وعن العـداء المبدئى — أزلا وأبدا — بين « العـروبة » و « الاسلام » ؟!**

حدث ذلك ٠٠ وما يزال حادثا فى واقعنا الفكرى والسياسى الراهن ، حتى ليوشك الأمر أن يبلغ بالبعض حد « الطائفية الفكرية » ؟! ٠٠ فنرى :

(أ) « قوميين - عروبيين » :

تتلمذوا - فى الفكر القومى - على المدارس القومية الأوربية - فجاءت قوميتهم « علمانية » ، تنفى الاسلام عن موقعه فى الفكرة العربية والحركة العربية ، كما نفت قوميات الغرب « لاهوت الكنيسة وكهنوتها » من الفكر والحركة اللذين صنعا لأوربا دولها القومية ونهضتها الحديثة .

(ب) و « اسلاميين - عرب » :

تتلمذوا - فى فكرهم السياسى الاسلامى - على فكر سياسى اسلامى غير عربى - أفرزته ملابسات خاصة - غير عربية - فهم أصحاب القومية بمعناها الأوربى العلمانى - فجاء هذا الفكر - وهو هندى المنبع والمنطلق - ليناصب القومية كل العداء ... ومضى هؤلاء « الاسلاميون - العرب » - فى مواجهة « المشروع القومى العربى الناصرى » - ينتزعون هذه النصوص السياسية الغربية عن الملابسات العربية ، ويوظفونها ، قسرا ، فى البيئة العربية ، التى لا علاقة لها بأى من الملابسات التى أفرزت هذه الأفكار .. فاصطنعوا مشكلة : تناقض « الاسلام » مع « العروبة » ، ليستعيروا لها الحل الغريب ، الرافض للقومية العربية وللوحدة العربية ، باسم الاسلام ؟! ..

(ج) و « اسلاميين ــ غير عرب » :

تدفع بعضهم روح « الشعوبية الجديدة » للسير على ذات الدرب ، مستهدفين فيه ذات الغايات ؟! ..

فاذا علمنا ــ ونحن نواجه هذا الواقع ــ أن « العروبيين » و « الاسلاميين » ــ فى واقعنا الفكرى والسياسى ــ هما القوتان الأساسيتان اللتان تتجسد فيهما « الذاتية الأصيلة والحقيقية للأمة » .. فأية مأساة كامنة فى هذا « الخلاف ــ المؤامرة ــ المصطنع » الممزق لقوى الأمة الحقيقية والرئيسية ، بافتعال التناقض داخل هويتها « العربية ــ الاسلامية » ؟! ..

واذا كان الأمر كذلك .. فأية أهمية تحملها ــ للحاضر والمستقبل والمصير .. الكلمة السواء عن علاقة « العروبة » « بالاسلام » .. وموقف الفكر الاسلامى من القومية ، ومن الوحدة القومية لوطن الأمة العربية !؟ ..

***

فى البدء :

كانت العروبة ، والجماعة العربية قبل أن يظهر الاسلام .. فلما أرسل الله الرسول العربى ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، برسالة الاسلام ، قبل أربعة عشر قرنا من الزمان ، كانت رسالته ، كما بلورها

القرآن الكريم : الحلقة الخاتمة فى سلسلة الرسالات السماوية التى توالت على درب هداية السماء للانسان ، وهى رسالات توحدت فى جوهر العقيدة ، وتمايزت فى النهج والشريعة ٠٠ بحكم وحدة الدين ، وتبعا لتمايز أمم الرسالات ولغاتها وواقع مجتمعاتها ومراحل التطور التى كانت تمر بها كل أمة عندما جاءها نبأ السماء ٠٠٠

فجوهر الدين الالهى الواحد : عقيدة التوحيد فى الألوهية ، وعمل صالح ، وايمان بالجزاء ٠٠ وفى هذا الجوهر جاء الرسول العربى — برسالة الاسلام وكتابه المعجز — مصدقا لما سبق من الدين والكتب والرسالات ، ومصححا لما طرأ عليها من التحريف والتأويل والتبديل ٠٠ فكان — فى هذا الجانب — : دينا عالميا ، ليست فيه خصوصية عربية بأى حال من الأحوال ، ليس من حيث كونه استمرارا للدين الالهى العالمى كما عرفه التاريخ السابق والأمم التى خلت ، فحسب ، وانما من حيث نطاق الدعوة الجديدة وحدود التكليف الالهى الذى اصطفى الله له خاتم الرسل والأنبياء ٠٠ دين عالمى ، أوحى الله به الى رسول مأمور أن يبلغه الى العالمين ٠٠ [قل ما أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين] (٣) ٠٠ [وما تسألهم عليه من أجر ، ان هو الا ذكر للعالمين] (٤) ٠٠ [وما أرسلناك

(٣) الأنعام : ٩٠ ٠

(٤) يوسف : ١٠٤ ٠

الا رحمة للعاملين] (٥) .. [تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا] (٦) .. [وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون . ان هو الا ذكر للعالمين] (٧) .

ونحن نلاحظ أن جميع هذه الآيات ، التى تتحدث عن عالمية الدعوة والرسالة والقرآن ، مكية .. فهذه العالمية للاسلام الدين قضية مبدئية ، أصيلة ، وليست طارئا ذا علاقة ب «الدولة» و «السياسة» و «الفتوحات» !.

وفى اطار العقيدة الاسلامية ليست هناك خصوصية للعرب على غيرهم من الأمم ، بالمعنى القومى ، ولا فضل ، فى هذا المجال ، لعربى على أعجمى الا بالتقوى ..

لكن هذا القرآن ، الذى جاء ليبشر بالعقيدة الالهية العالمية ، قد نزل بلسان عربى مبين – فالرسول ، الذى اصطفاه الله لحمل الأمانة وابلاغ الرسالة : عربى ... ومن هنا جاء اصطفاء العربية لسانا لهذا القرآن ... واصطفاء الجماعة العربية طليعة لحمل هذه الرسالة الى العالمين .. وهنا تبدأ الخصوصية بين العروبة وبين الاسلام ، وتبدأ العلاقة المتميزة بين العرب والاسلام ..

---

(٥) الأنبياء : ١٠٧ .

(٦) الفرقان : ١ .

(٧) التكوير : ٢٥ – ٢٧ .

ثم .. ان فهم العقيدة لا بد له من فلسفة ومنطق وادارة للجدل والحوار مع الخصــــوم .. وهنا يأتى دور « الواقع العربى » ، الذى أصبح مادة فى الجدل العقائدى ، لا بد من دراسته واستيعابه لوعى حقيقة وأبعــاد هــذا الجدال ..

ولما كان الاسلام لم يقف عند حدود « العقيدة » ، وانما جاء بنهج متميز اختص الله به هــذه الأمة طريقا تسلكه للتدين بهذه العقيدة ، وجعل فى هذا النهج أحكاما هى فلسفات وأطر ومقاصد - ثوابت - تحكم المتغيرات من شئون الحياة الدنيا .. فلقد كان « للواقع العربى » الشأن الكبير الذى طبع هذا الجانب من جوانب الاسلام بالطابع الخاص .. هنا نلحظ كيف كان الواقع العربى هو « سبب النزول » لآيات القرآن الكريم ، وبدون وعى هذا « الواقع الحضارى العربى » لا سبيل الى فقه هذا الجانب من جوانب الاسلام الدين .. من هنا تبدأ العلاقة بين الخصــوصية العربية وبين الاســلام ، كدين عالمى لا يختص به العرب دون العالمين .. ومن هنا بدأت وتبدأ العلاقة « العضوية .. والجدلية » بين العروبة والاسلام ..

فما كان للقرآن الا أن يكون عربيا (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) (٨) .. (وهذا لسان عربى مبين) (٩) .. (انا أنزلنــــاه قرآنا عربيا لعلكم

---

(٨) ابراهيم : ٤ .

(٩) النحل : ١٠٣ .

تعقلون) (١٠) ·· (وكذلك ! نزلناه حكما عربيا) (١١)··
ولكل ذلك فهو ـ مع توجهه بالعقيدة العالمية لجميع العالمين ـ فخر للعرب ، كقوم للنبى العربى ، (وانه لذكر لك ولقومك ··) (١٢) ·· **واذا كانت ترجمة القرآن تفقده خاصـــية بيـــانه المعجز ، فان العربية ، للقرآن ، لغة مصطفاة ؟! ··**

عقيدة أزلية ، جاء بها القرآن مصدقا لما سبقه من كتب على درب صلة السماء بالأرض وهداية الله للانسان ·· و « **شريعـــة** » حملت خصوصـــــية الأمة الجديدة ·· و « **اصطفاء** » لهذه الأمة ولغتها وواقعها الحضارى ، بحكم دورها فى فقه الدين وحماية الدعوة والجهاد فى سبيلها وحملها الى العالمين ·· وبحكم مكان العربية ، لغة وواقعا حضاريا فى فهم العقيدة والشريعة ·· الأمر الذى وحد بين العروبة والاسلام ، وربط بين الأمة العربية والاسلام ، فى الصعود والهبوط ، والتقدم والتقهقر على مر التاريخ ·· ولم يكن ذلك بالأمر الغريب ، **فهو الرباط العضـــوى بين « الدعوة العالميـــة » وبين « القائد الطبيعى » لهذه الدعوة العالمية ؟!**

واذا كانت « عروبة » القرآن قد مثلت « جديدا »

---

(١٠) يوسف : ٢ ·
(١١) الرعد : ٣٧ ·
(١٢) الزخرف : ٤٤ ·

أضيف الى « تصديقه » لما سبقه من كتب سماوية ، فان خصوصية « شريعة » الرسالة الخاتمة ـ ومكان العروبة فيها ملحوظ ـ قد جعل له الهيمنة على ما بين يديه من الكتاب ! •• (ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ••) (١٣) •• (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (١٤) •

هكذا كانت البداية •••

● دين عالمى العقيدة ، لا خصوصية فيها لأمة على أمة ، ولا اختصاص فيها لعربى على أعجمى ••

● لكن عروبة الكتاب •• والرسول •• والطبيعة •• والواقع ـ وهى المقومات التى جعلت هذه العقيدة قوة حية تجسدت فى واقع الحياة ـ جعل للأمة العربية علاقة خاصة بهذه الرسالة العالمية ، وجعل لواقعها الحضارى مكان « المذكرة التفسيرية » من « القانون » ••

---

(١٣) الأحقاف : ١٢ •

(١٤) المائدة : ٤٨ •

ومن هنا جاءت الخصوصية وجاء الارتباط بين « الدعوة العالمية » وبين « قائدها الطبيعى » و « السبيل الأمثل » الى فقهها ؟! ••

***

الدين •• والدولة •• والحضارة :

ولأن الاسلام لم يقف عند « العقيدة » و « النهج ـ الشريعة » الميسر للتدين بهذه « العقيدة » ، فانه لم يقف عند حدود « النحلة الدينية » و « الرسالة الروحية » و « المذهب التهذيبى » فى عالم الأخلاق •• لقد فرض على الناس فروضا اجتماعية ، سماها فقهاء الاسلام « فروض الكفاية » ، يتوجه التكليف بها الى « الجماعة : الأمة » ، ويقع اثم التقصير فيها على الأمة جمعاء •• ولذلك فهى آكد من « فروض العين » الفردية ـ مثل الصلاة والصوم والحج الى بيت الله الحرام ! ••

ورغم أن « الدولة » لم تذكر فى « الفروض الاجتماعية » للاسلام ، الا أن « الواقع » و « العقل » قد حكما بأنه لاسبيل الى اقامة « الفروض الاجتماعية » الاسلامية بدون هذه « الأداة ـ الدولة » ، فغدت ـ فى الاسلام ـ « فريضة مدنية » اقتضتها « فرائض الدين » ، وقامت بينهما ـ الدين والدولة ـ علاقة شابهت علاقة

« العرب والعروبة » ب « الاسلام الدين » ! •• فالدولة ـ وهى لسيت فريضة دينية ـ غدت شرطا ضروريا لاقامة الاسلام ونمائه واستمراريته •• والعرب ـ والاسلام ليس خاصا بهم ـ كانوا هم أداة الاسلام وحزبه الطليعى الذى أقام له الدعائم وحفظ له الأركان وضمن له الانتشار ••

ولقد كان طبيعيا ـ بل وضروريا ـ أن تكون هذه الدولة « عربية » بقدر ما هى « اسلامية » •• وأن يكون هذا هو حال « الحضارة » التى أقامتها « الأمة » ، بواسطة « الدولة » ، من حول نواة هذا « الدين » !••

لقد اكتمل الاسلام ، بثوابته الدينية ـ عقيدة وشريعة ـ كوضع الهى ـ باكتمال نزول القرآن الكريم (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)(١٥) •• لكن الدائرة من حول « الثوابت الدينية » ـ فى شئون الدنيا وعمرانها •• والدولة وسياستها •• والحضارة والابداع فيها ـ كانت ، وستظل دائمة النمو والاتساع ••

وبسبب من أن الاسلام هو خاتم الرسلات ، جاء عندما بلغت الانسانية سن رشدها ، فلم تعد خرافا ضالة تحتاج دوام وتوالى الأوصياء •• فلقد ناسب الاسلام هذا

---

(١٥) المائدة : ٣ •

الطور الانسانى الجديد ، فجعل معجزته « النقلية » ـ القرآن ـ معجزة « عقلية » جاءت تحتكم الى العقل ، ولم تأت لتدهشه ، كما كان الحال مع معجزات الرسل السابقين .. فعلا مقام العقل فى « الدين » .. وكان طبيعيا أن يكون مقامه أعلى فى شئون الدنيا والدولة والحضارة، التى أوكل الاسلام ابداع علومها وصياغة نظمها الى « العقل ـ المسلم » بواسطة « الاجتهاد » ..

وبسبب من عروبة القرآن والسنة .. وبسبب من عروبة الواقع الذى قام مقام « المذكرة التفسيرية » للقرآن والسنة ، فلقد غدا فقه العربية وحذق علومها ، بل والبراعة فى فهم تراثها الجاهلى ـ نثرا وشعرا وحكمة ـ هو الطريق الوحيد للاجتهاد الاسلامى .. وانعقد الاجماع فى الاسلام على عروبة أدوات الاجتهاد .. ومن ثم كانت عروبة ثمرات هذا الاجتهاد .. فجاءت علوم الاسلام عربية فى الأساس .. ووضح ذلك فى « دولته » كل الوضوح ..

● فالعروبة هى السبيل الى تقنين أحكام الشريعة .. لأنه لا سبيل الى فقه القرآن والسنة والواقع العربى لعصر الوحى الا بالتضلع فى علوم العربية .. ومن هنا قامت علاقة التلازم بين اسلامية القانون وبين عروبة مؤسسة التشريع فى الدولة الاسلامية ـ (أهل الحل والعقد) .

● ودولة الاسلام ـ فى سلطتها العليا ـ « الخليفة ـ الامام » ـ لابد أن تكون عربية ‥ لأن الاسلام قد اشترط أن تكون الدولة « للعلماء » ، فأجمع فقهاؤه على اشتراط العلم البالغ مرتبة الاجتهاد في رأس الدولة ـ الخليفة ـ ‥ ولا سبيل الى بلوغ مرتبة الاجتهاد هذه الا بعروبة تيسر فقه القرآن العربى المبين (١٦) ! ‥

لقد وقفت حقيقة هذه العلاقة بين « العروبة » و « الاسلام » ـ خلف عروبة الدولة الاسلامية ، وجعلت العروة وثقى بين انتشار العربية ـ يوم كانت الدولة عربية ـ وبين انتشار الاسلام ‥ وفى هذا الضوء نفهم المعنى الحقيقى والعميق لكلمات الامام عبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠ م) التى تقول : « ان العرب قد رشحوا لهداية الأمة ، وان الامم التى تدين بالاسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الاسلام ، وهو لسان العرب ‥ فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الاسلام ‥ »(١٧) ‥ ونفهم معنى كلمات الامام حسن البنا (١٣٢٤ : ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م) التى تقول « لقد نشأ الاسلام عربيا ‥

---

(١٦) د٠ محمد عمارة [المعتزلة وأصول الحكم] ص ١٥٢ وما بعدها ٠ طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م ٠

(١٧) [كتاب آثار ابن باديس] جـ ٤ ص ١٢ طبعة الجزائر ١٩٦٨ م ٠

ووصل الى الأمم عن طريق العرب •• وجاء كتابه بلسان عربى مبين •• وتوحــدت الأمم باســمه عـلى هــذا اللسان •• (١٨) » •• وفى هذا الضوء نفهم قــرارات مؤتمرات الفكر والتعليم والسياسة الاسلامية ـ المبرأة من الشعوبية ـ حول ضرورة دراسة العربية للأمم التى أسلمت ولم تقترن فيها العروبة بالاسلام ؟! ••

***

لكن •• أية عروبة ؟؟ :

واذا كان هذا هو « الاسلام » الذى ارتبـط ـ فى جوانبه الحضارية ـ بـ « العروبة » ، رباطا عضويا وجدليا •• فأية «عروبة» تلك التى ارتبطت هــذا النوع من الارتباط بـ « الاسلام »؟؟ ••

لقد ظهر الاسلام و « للعروبة » فى شبه الجزيرة العربية معنى « العصبية العرقية •• والتعصب للدم •• بل وللقبيلة على وجه التحديد » •• وبالطبع فلم تكن ـ ولن تكون ـ هذه العروبة ، بهــذا المعنى ، هى التى يرضاها الاسلام ويقيم معها علاقة الاخاء •

---

(١٨) حسن البنا [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٦ • طبعة دار الاعتصام • القاهرة سنة ١٩٧٧م •

لقد رأى الاسلام فى هذا الفهم لمصطلح « القوم » و « العروبة » بداوة ضيقة الافق ، تجعل الانسان أسيرا لاوهام تحول بينه وبين العدل والانصـاف فى العلاقات الانسانية وتقويم المذاهب والافكار ·· فكان لابد له ـ وهو الذى جاء موحدا لله فى الدين وموحدا للعرب فى الدولة والانتماء ـ من أن يرفض هذا المفهوم الضيق الذى يمزق الجماعة العربية ، سياسيا وقوميا ، تمزيق تعدد الآلهة لها فى المعتقد والدين ·· ولذلك وجدنا الرسول، صلى الله عليه وسـلم ، يوجه نيرانه الفكرية الى هـذا المفهوم العرقى والقبلى للعروبة ، ويدعو الناس الى نبـذ هذه العصـبية الجاهلية قائلا لهم : « دعـوها ، فانها منتنة (١٩) » ؟! ·· ويقول : « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية (٢٠) » ! ·· فلما سـألـه الصـحابى واثلة ابن الأسقع :

ـ يا رسول الله ، ما العصبية ؟

(اجاب) : « أن تعين قومك على الظلم » (٢١) ·

فاذا ما عاد الصحابى ـ واثلة بن الأسقع ـ ليسأل الرسول :

---

(١٩) رواه البخارى والترمذى ·

(٢٠) رواه أبو داود ·

(٢١) رواه أبو داود ·

ـ يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجـــل قومه ؟

جاء جواب الرسول ، صـــــلى الله عليه وســـلم ، **ليميز بين الولاء القومى القائم على معايير العدل ، وبين ذلك الولاء الأعمى الذى يهدر معايير العدل فى ســـبيل التعصب للأعراق والدماء .. فقال فى جوابه :**

ـ « لا . ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم (٢٢) » .

فالولاء القومى الواعى ، والمؤسس على معايير العدل هو المضمون الذى زكاه الاسلام ودعا اليه كى يكون المحتوى لمصطلح « القوم » و « العروبة » .. أما الولاء الأعمى الذى يهدر معايير العدل فى سبيل عصبية العرق والجنس فهو الذى رفضه الاسلام .. وقال فيه الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « من قاتل تحت راية عمية ـ (وهى الأمر الأعمى ، الذى لا يستبين وجهه) ـ يغضب لعصبة ، أو يدعو الى عصبة ، فقتل فقتلة جاهلية » (٢٣) !

بل لقد رأينا الاسلام ـ منذ ذلك التاريخ القديم ـ يمضى على هذا الدرب فيغرس فى تربة المجتمع الذى صاغه

---

(٢٢) رواه ابن ماجة والامام أحمد .

(٢٣) رواه مسلم .

« المفهوم الحضارى » ـ بدلا من « المفهـــوم العرقى » ـ للعروبة •• فيخطب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فى الناس قائلا : « أيها الناس •• ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هى اللسان ، فمن تكلم العربيـة فهو عربى » (٢٤) ! •• ثم يتقدم على هذا الدرب ، فيضع هذا الفكر الجديد فى التطبيق ، ففى التنظيم الجـــديد لرعية الدولة العربية الاسلامية ، صار الولاء للعروبة ، بالمعنى الفكرى واللغوى والحضارى ، هو المعيار المحـــدد لاطار « القوم •• والقومية » ، وليس العرق والدم والجنس •• فالذين كانوا بالأمس أرقاء ، ينحدرون من أصـــلاب وأعراق رومية أو فارسية أو حبشية ، غدوا ـ بعد أن تعربوا باللغة والحضارة ـ جزءا من « القوم العرب » ، وقام رباط « الولاء » الذى ربطهم بالقبائل التى كانوا فيها من قبل رقيقا ـ وهو رباط اختيارى غير مفروض عليهم ـ قام هذا الرباط مقام « النسب » ، فغدت الحضارة والثقافة والفكر « نسبا » جديدا ألف بين الاعراق المختلفـة فى كيان قومى جديد •• وروت السنة الشريفة ، فى هـذه القضية الكثير من الاحاديث النبوية التى تقول : « مولى القوم منهم » (٢٥) و « الولاء لحمة كلحمة النسب » (٢٦)!

---

(٢٤) ابن عساكر [تهذيب تاريخ دمشق] جـ ٢ ص ١٩٨ • طبعة دمشق •

(٢٥) رواه البخارى •

(٢٦) رواه أبو داود والدارمى •

ولقد رأينا مفكرا عملاقا كالجاحظ (١٦٣ ــ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ــ ٨٦٩ م) يبصر دلالة هذا الانجاز التقدمي الذي صنعه الاسلام في ميدان المفهوم والمضمون لمصطلح « القوم » و « العروبة » ، فيتقدم لتسليط الضوء عليه ، ولشحذه سلاحا يواجه به خطر « العصبية القبلية » ومخاطر « الشعوبية » جميعا ·· فيتحدث عن الروابط التي نشأت ونمت بين رعية الدولة العربية ، والتي أخذت تمثل خيوطا قومية جامعة تشدهم جميعا لمركز واحد ، وتكون منهم ــ رغم تعدد الأعراق القديمة وتنوع الاصول الجنسية ــ « كلا قوميا واحدا » ، وفي مقدمة هذه الخيوط والقسمات روابط : اللغة الواحدة ، والفكر الواحد ، العادات والتقاليد والشمائل ، والتكوين النفسي المتحد·· ويرى الجاحظ أن هذه الخيوط والقسمات قد غدت من المتانة والرسوخ والوضوح بحيث فاقت « وحدة النسب » و « اتحاد الدم والعرق » ؟! ··

فالذين يتحدون في النسب ، مثل العرب والعبرانيين ــ أبناء اسماعيل واسحق ، ولدى ابراهيم ــ قد صاروا أمتين ، قوميا ــ رغم اتحادهم في النسب والدم ــ بسبب اختلاف السمات « القومية ــ الحضارية » ، على حين وحدت هذه السمات « القومية ــ الحضارية » بين ذوي الاصول العرقية المختلفة ــ مثل العرب العدنانيين والعرب القحطانيين ــ فصاروا أمة واحدة وقوما واحدا ؟! ··

يقول الجاحظ في رصد انجاز الاســـــلام الفكرى والواقعى بهذا الميدان ، وفى تحديد مضمون « العروبة » التى ارتبطت بـ « الاســـــلام » : « ان العرب قد جعلت اسماعيل ، وهو ابن أعجميين — (ابراهيم وهاجر) — عربيا لأن الله فتق لهاته (٢٧) بالعربية المبينة ، ثم فطره عـلى الفصـاحة ، وسلم طبـاعه من طبائع العجم •• وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها •• فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب ••

وان العرب لما كانت واحدة ، فاستووا فى التربية ، وفى اللغة والشمائل ، والهمة ، وفى الأنف والحمية ، وفى الاخلاق والسجية ، فسبكوا سبكا واحـدا ، وكان القالب واحدا ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الاخلاط •

وحين صار ذلك أشد تشابها فى باب الأعم والأخص وفى باب الوفاق والمباينة ، من بعض ذوى الارحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق فى الحسب ، وصارت هذه الاسباب ولادة أخرى ، حتى تناكحوا وتصاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى اسحق ، وهو أخو اسماعيل، وجادوا بذلك جميع الدهر لبنى قحطان •• لأن هذه المعانى

---

(٢٧) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم ، مشرف على الحلق •

قد قامت عندهم مقام الولادة والارحام الماسة ‥ » (٢٨) !

هذا هو المعنى الحضارى لـ « العروبة » التى قامت بينها وبين « الاسلام » علاقة عضوية وروابط جدلية وتحقق بينهما الوفاق والأخاء ‥

***

ونحن اذا شئنا أمثلة أخرى ووقائع جديدة على هذا الارتباط الذى قام بين « العروبة » و « الاسلام » ـ منذ عصر البعثة ـ سواء فى ميدان الفكر أم حقل الممارسة والتطبيق ، وجدنا العديد من الأمثلة والشواهد على هذا الارتباط :

● فلقد جاءت البعثة النبوية بالاسلام بعد قرون من الصراع الحربى بين « الفرس » و « الروم » ‥ وكان النظام الاقطاعى المغلق ، الذى ساد فى فارس ، قد أسهم مع غيره من عوامل الظلم ، فى اضعاف الفرس • فعجزوا عن قيادة الشرق فى مواجهة الغرب ، فتحقق النصر للروم الذين احتلوا الشام ومصر وبلاد الشمال الافريقى وأغروا الأحباش بالاستيلاء على اليمن ومحاولة احتلال مكة بغزوة الفيل فى العام الذى ولد فيه الرسول ، عليه الصلاة والسلام ؟! ‥

---

(٢٨) [رسائل الجاحظ] جـ ١ ص ٢٩ ـ ٣٤ ، ١١ ـ ١٤ • تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون • طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م •

فلما ظهر الاسلام ٠٠ كان هناك وعى بالبعد القومى لظهوره ، وكيف أنه ايذان بتسلم الأمة العربية زمام قيادة الشرق بأجناسه وأديانه المختلفة فى الصراع التاريخى مع الغرب ، بعد أن عجز عن ذلك الفرس الساسانيون ! ٠٠٠ ولمن شاء فليتأمل تعليق الرسول ، صلى الله عليه وسلم على انتصار العرب على جنود الفرس فى موقعة « يوم ذى قار » ـ فى العام الأول للبعثة ـ وربطه هذا النصر « العربى » بظهور « الاسلام » ٠٠ لقد قال : « اليـــوم ، أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ٠ وبى نصروا(٢٩) » ؟ !

ثم ، ها هـــو يحدث عمه أبا طالب عن « **ارتباط « التوحيد الدينى » « بوحدة العرب » ، كقوم وجماعة ، وأمة ، وأثر ذلك فى تحولهم من موقع « التابع » الى مكان « القائد » فى المنطقة ٠٠** « يا عم ، ألا أدعوهم الى كلمـــة يقولونها ، تدين لكم بها العـــرب ، وتؤدى اليكم العجم الجزية ؟ ! ٠٠ والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله ! ٠٠ ان أمتى ستظهر على الحيرة ، وقصور كسرى ، وأرض الشام والروم ، وقصور صنعاء ٠٠ وبشر المسلمين بذلك (٣٠) ٠٠ » ؟ !

لقد ارتبط « التوحيـــد الدينى » ب « التوحيـــد

---

(٢٩) ابن عبد ربه [العقد الفريد] جـ ١١ ص ٢٦٢ ٠ طبعـــة القاهرة سنة ١٩٧٣م ٠

(٣٠) ابن الأثير [الكامل فى التاريخ] جـ ٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٣ ٠

القومى » ، فى رسالة الاســـلام ، ارتباط وجهى العملة الواحدة كل منهما بالآخر ·· ذلك أن وثنية العـرب فى الجاهلية ، بما كانت تعنى من تعدد الآلهة فى القبائل ، كانت تغذى وتجسد غياب وحـــدة الهوية لهذه القبائل العربية ·· فجاء « التوحيد الدينى » ليوحد هويتها فى « الدين » ، وليسهم فى وحدة هذه الهوية فى « القومية والدولة » ، ومن هنا كانت العروة الوثقى بين « التوحيد الدينى » و « التوحيد القومى » ·· ووجدنا القرآن الكريم يتحدث عن الوحدة التى أقامها الاســـلام للجماعة العربية باعتبارها « آية » من آيات الله ، فيخاطب الرسول ، قائلا : [ان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين · وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم(٣١)] ·· وباعتبارها « نعمة » الهية ، فيخاطب العـــرب الذين انتشلتهم الوحدة من التشرذم ، قائلا : [واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا(٣٢)] ·· ثم يذكرهم بحالهم القديم ، يوم كان التشرذم القبلى قد أسلمهم الى الاستضعاف ، حتى غدوا كالطير المهيض الجناح تتناوشه الطيور الجوارح ؟ ! ــ من الفـــرس والروم ؟ ــ ·· [واذكروااذ أنتم قليـــل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس]··

(٣١) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ ·

(٣٢) آل عمران : ١٠٣ ·

ثم تمضى الآية فتحدثهم عن أثر « التوحيـــد الدينى » على « وحدتهم القومية » ، التى جعلتهم ســـادة منتصرين ، فتقول : [٠٠٠ فآواكم وأيدكم بنصره(٣٣)] !

ولقد بلغ ارتباط « التوحيد الدينى » ب « التوحيد القومى » ، فى الدولة العربية الاسلامية الأولى ، بلغ من الوضوح والقوة الى الحد الذى سوغ للخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق قتال الذين ارتدوا عن « وحدة الدولة » ، رغم ايمانهم بأصول الدين ، فلقد اعتبر هذه « الوحدة القومية » حقـــا من حقوق « التوحيد الدينى » ، التى رمزت له — فى هـــذا الحـــدث — فريضـــة الزكاة الدينية ؟! ٠٠

بل اننا اذا نظرنا فى « المعيار » الذى حكم تكوين « رعية » دولة المدينة ، التى أقامها الرسول ، صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة الى يثرب ، فاننا واجدوه « معيارا قوميا » ٠٠ فلقد تكونت هذه الرعية من « **عرب متحدين فى القومية ومختلفين فى الدين** » ٠٠ فالمهاجرون والأنصار تكونت منهم « أمة — جماعة الاسلام » والبطون العربية التى كانت قد تهودت من قبائل المدينة قد دخلوا مـــع المهاجرين والأنصـــار — مع اختـــلاف الدين — فى الرعية السياسية للدولة الجـــديدة ٠٠ وتكون منهم — على قدم

---

(٣٣) الأنفال : ٢٦ ٠

المساواة ــ جيش الدولة الجـديدة ، فحاربوا معاضـــد المشركين ، واقتسموا الغنائم معا ٠٠ ونص دستور الدولة ــ [الصحيفة ــ الكتاب] ــ على أنهم « أمة واحدة » ــ ولا معيار لها هنا الا المعيار القومى ــ وعلى أن بينهم التأييد والنصح والنصر على أعداء هذه الدولة ٠٠ فـ « المؤمنون والمسلمون ، من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : أمة واحدة من دون الناس ٠٠٠ وان يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ٠٠ وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة [الدستور] ٠ وان بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم » :

ثم مضى هذا الدستور يعدد لبنات ــ [قبائل] ــ هذه الرعية ، فوجدناهم جميعا عربا ، أنصارا ومهاجرين ، وقطاعات متهودة من قبائل المدينة العربية ، ولم يكن بينهم أحـد من اليهـــود العبرانيين(٣٤) ٠٠٠ **فهـو ، اذن ، « المعيار القـــومى » ، حكم تكوين الرعية الأولى للدولة العربية الاسلامية الأولى ! ٠**

وهذه القبلة التى يستقبلها المسلمون فى الصلاة ، كانت فى البدء الى « بيت المقدس » ٠٠ وبالرغم من انتفاء الجهة ، اسلاميا ، عن الله سبحانه وتعالى ٠٠٠ ومع تنبيه القرآن الكريم على حقيقة : ٠٠٠ [ليس البر أن تولوا

---

(٣٤) النويرى [نهاية الأرب] جـ ١٦ ص ٣٤٨ ــ ٣٥١ طبعـــة القاهرة ٠

وجوهكم قبل المشرق والمغـــرب ···(٣٥)] ·· [ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ··(٣٦)] ··
الا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان دائم الشوق متصل الرجاء **أن تكون قبلة المسلمين « الدينية » مكانا خالص « العروبة » ، له في التاريخ الديني للعرب قداسة أول بيت وضعه الله للناس ·· وهو الكعبة المشرفة والبيت الحرام** ·· وعن هذه الرغبة ، وعن الاستجابة الالهية ، لها ، تتحدث آيات القرآن الكريم الى الرسول فتقول : [قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، **فلنولينك قبلة ترضاها** فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ··] (٣٧) ·

وعندما أرادت الدولة العربية الاسلامية ، فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب ، أن تؤمن قاعدتها فى قلب شبه الجزيرة العربية ، وجدنا « المعيار القومى العـــربى » حاكما لعملية « الاقرار » و « الاجـــلاء » ، **فأهل الكتاب من العبرانيين أجلاهم عمر عن « القاعدة » الى « الأطراف » ، على حين بقى أهل الكتاب من العرب دون اجلاء ! ·· بل لقد استبدلت الصـــدقة المضـــاعفة بالجزية من عرب بنى تغلب ، نصارى نجران ، عندما قيل**

---

(٣٥) البقرة : ١٣٧ ·

(٣٦) البقرة : ١١٥ ·

(٣٧) البقرة : ١٤٤ ·

لعمر بن الخطاب انهم عرب يأنفون من الجزية(٣٨) ؟!٠٠
هكذا علل المؤرخون سبب استبدال ما يوازى الزكاة بالجزية من نصارى العرب ٠٠ **وفى تقديرنا أن انتفاء « المغايرة » ـ بالمعنى القومى ـ بينهم وبين المسلمين العرب هي التى جعلتهم كلا قوميا واحدا ، فميزت بينهم وبين « الغير » ـ بالمعنى القومى ـ لأن عقد الذمة فى الأساس عقد مع « الغير » الذين لم تجمعهم بالمسلمين السمات والقسمات التى تجعلهم جزءا من « الأمة » ، تجمعهم وحدة الولاء والمساواة فى المواطنة ، حقوقا وواجبات ! ٠٠**

هكذا قامت العلاقة بين « الاسلام » و « العروبة » ٠٠٠

● فالاسلام هو الذى صنع للأمة العربية وحدتها القومية الأولى ٠٠ وجعل لها اليد العليا على الذين أذلوها فيما سبق ظهور الاسلام من حقب التاريخ ٠٠٠

● والأمة العربية هى التى مثلت، بالنسبة للاسلام: الطليعة التى استجابت لدعوته ، وحملت عبء حمايتها ، بالدولة والفتح ٠٠ ثم قامت بابداع حضارته العربية الاسلامية ٠٠ وقادت التبشير بعقيدته بين شعوب الأمم الأخرى ٠٠

---

(٣٨) أبو يوسف [كتاب الخراج] ص ٢٧٢ ٠ طبعة دار الشروق ٠ القاهرة سنة ١٩٨٥م ٠

● وهذه العربوة الاسلامية ، كانت دائرة انتماء حضارى وقومى ، مثلت واقعا طوره الاسلام ٠٠ وما كان له أن يتجاهله أو يقفز عليه ٠٠ فالعـــروبة العــرقية الجاهلية ـ والتى مثلت فكرية ـ [أيديولوجية] ـ منافية لانسانية الاسلام ـ قد أخلت مكانها للعروبة الحضارية ، التى قامت العلاقات العضوية والجدلية بينها وبين الاسلام ٠٠ وهى ، بهذا المفهوم ، لم تقف حائلا بين الاسلام الدين وبين العالمية ، بل كانت سبيل الاسلام وأدائه الى هذه العالمية ٠٠ فهى دائرة أخص ، لا تلغى الدائرة الأوسع ـ كما هو حال القومية بالمعنى العرقى أو العلمانى ، حيث لا مكان معها لدائرة الملة والاعتقاد ـ وانما هى الطريق الى الدائرة الأوسع ـ دائرة الجامعة الاسلامية ـ التى ـ هى بدورها ـ الطـريق الى الدائرة الانســانية ، التى تجمع الانسان من حيث هو انسان ! ٠

***

التقدم معا ٠٠ والتراجع معا ؟ ! :

من الكلمات الجامعة لعمر بن الخطاب ، تلك الكلمة التى خاطب بها العرب المسلمين فقال : « **الزموا السنة تلزمكم الدولة** (٣٩) » ؟! ٠٠ ولقد حدث وسارت الأمور

(٣٩) [خطب عمر بن الخطاب ووصاياه] ص ١٣٩ ٠ جمعها وحققها محمد أحمد عاشور ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥م ٠

وفق مضمون هذه الكلمات ، **فاقترنت نهضة الاســـلام بعروبة الدولة ، وكان تراجع الاســـلام مصاحبا لعجمة الدولة ! ..**

وكان عمر بن الخطاب ـ وهو الذى اكتملت فى عهده أركان الدولة العربية الاسلامية ـ واعيا كل الوعى بأن عروبة هذه الدولة رهن ببقاء العرب قوة ثورية ضاربة ، تلتزم السنة التى ربطت بين العروبة والاسلام .. ومن هنا كان حـذره وتحذيره من « الترف » الذى يحـول المناضلين والمقاتلين عن ساحات الفتح وميادين البناء ، لأن تفشى ذلك فى العرب سيديل دولتهم لحساب الأعاجم الذين يتربصون بهم تملأ قلوبهم مشاعر الثأر والانتقام ! .. والذين يتأملون رفض عمـــر توزيع الأرض المفتوحة فى أودية النيل وبردى ودجلة والفرات على الجند الفاتحين .. وتمصير الأمصـــار الخاصة بالجند .. وتمييزهم بالزى المخالف لزى المشركين .. وحجـــزه أشراف قريش عن مغادرة المدينة الى حيث الترف فى البلاد الغنية المفتوحة .. ومنعه زواج الجند العـــرب من الســـبايا الكتابيـــات الجميلات ؟! .. والحاحه على التفقه فى السنة وفى العربية معا .. الذين يتأملون صنيع عمر هذا يدركون مدى وعيه بأهمية بقاء القوة العربية « ثورية ـ خشنة » ، ومدى ادراكه لمخاطر « الترف » على عروبة الاســـلام والدولة جميعا .. ومن كلماته الكثيرة فى هذه الأمور : « تفقهوا فى السنة ، وتفقهوا فى العربية ، وعربوا القـــرآن فانه

عربى ! ... واياكم والتنعم ، وزى أهل الشرف ، ولبوس الحرير ! .. ان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله مغرمات دون عباده ، الافأما وابن الخطاب حى فلا ، انى قائم دون شعب الحرة(٤٠) آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار .. ؟! (٤١) » ..

ولقد سجل الذين أرخوا لمسيرة الأمة على هذا الدرب، أن خروج العرب عن هذا النهج الذى دعا اليه عمر بن الخطاب ، وركونهم الى حياة الدعة والترف وحيازة الأموال والثروات فى البلاد المفتوحة ، قد كان ـ بعبارة الطبرى ـ « أول وهن على الاسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة !! .. (٤٢) » .

لقد امتدت حدود الدولة العربية فشملت فتوحاتها فى ثمانين عاما أوسع مما فتحه الرومان فى ثمانية قرون.. وفى هذه الدولة اقترن تقدم الاسلام بتقدم العروبة ، فشمخت الأبنية الفكرية للعلوم الاسلامية فى مختلف الميادين ، وتبلورت المدارس الكلامية ، والمذاهب الفقهية ، الى جوار العلوم الطبيعية ، وفنون اللغة والأدب والبلاغة ، وحركة الترجمة والتواصل مع كل الحضارات والمواريث.. وكانت العربية هى الأداة والوعاء فى هذه النهضة العملاقة ،

---

(٤٠) أرض بظاهر المدينة .

(٤١) [خطب عمر بن الخطاب ووصاياه] ص ١٣١ ، ١٣٥ ، ٦٨ .

(٤٢) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] جـ ١١ ص ١٢ ، ١٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م .

ولهـا كان الولاء حتى فى المواطن التى لم تتعرب فيهـا « الجماهير » ، ففيما وراء حدود شبه الجزيرة العربية ، تعـربت الحـواضر وتعربت « النخب » التى أبدعت فى مجالات الفكر ، وأصبح ولاؤها للعروبة الحضارية ، رغم انحدارها من أصلاب عرقية غير عربية ..

***

وكما اقترن « الاسلام » بـ « العروبة » فى التقدم والازدهـار .. كذلك كان اقترانهمـا فى التراجـع والجمود ! ..

ورغم أن عثمان بن عفان لم يكن كعمر بن الخطاب فى الحزم الذى اشتهر به الفاروق ، الا أنه قد كان واعيا لمخاطر العجمة وتراجع العروبة على هذا البناء الذى أقامه الاسـلام .. فلقد كتب كتابا عاما يقول فيه للناس : « أما بعد . فانكم انمـا بلغتم بالاقتداء والاتبـاع .. **وان أمر هذه الأمة صـائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « الكفر فى العجمة » ! فاذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا (٤٣) .. ؟!**

---

(٤٣) [تاريخ الطبرى] جـ ٤ ص ٢٤٥ ، طبعة دار المعارف . القاهرة .

فالترف ، وتراجع العروبة بشيوع اللحن فى أبناء العرب من السبايا ، وبلحن الأعاجم فى القرآن ، سبيلان لتراجع الصبغة العربية عن أركان الدولة وعن الحياة الاجتماعية كليهما •• وتراجع الصبغة العربية هو باب التكلف فى الدين ، لأنه « اذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا » ! ••• والذين ينظرون الى منابع مذاهب الغلو فى الدين ـ كلامية كانت أم صوفية أم سياسية ـ يرونها منابع أعجمية ، افتقدت الوسطية العربية التى تميز بها الاســـلام ! ، لافتقادها « العروبة » ، التى هى السبيل الوحيد لفقه حقيقة « الاسلام » ! •

ولقد كانت « الشعوبية » هى أبرز التيارات الفكرية والسياسية التى سعت ـ فى ظل الدولة الأموية والعباسية ـ للكيد لكل من « العروبة » و « الاسلام » ، عندما زعمت انفصام العلاقة بينهما ، فتقدمت الى الناس ، معـــادية « للعروبة » ، تحت رايات « الاســلام » ! •• ففتحت بذلك ، فى تاريخ مسيرتنا الحضارية ، باب الزعم بوجود تناقض بين « العروبة » و « الاسلام » ••

لكن ••• اذا كان رسول الاسلام ، صلى الله عليه وسلم ، هو القائل : « لا يبغض العرب الا منافق(٤٤) » . فكيف يستساغ أن تظلل رايات الاسلام فكرا بلغ فى العداء

---

(٤٤) رواه الامام أحمد •

للعرب والعروبة درجة « الدين » ؟! ·· ان نصر بن سيار [٤٦ ـ ١٣١ هـ ٦٦٦ ـ ٧٤٨ م] يحدثنا كيف تدين الشعوبيون بالعداء للعرب ، فيقول :

قوم يدينون دينا ما سمعت به
عن رسول ولم تنزل به الكتب

فمن يكن سائلا عن أصل دينهم
فان دينهم : أن تقتل العرب(٤٥) !

والذين خبروا فكر الشعوبية ، وأدركوا حقيقة أبعاده قد رأوا فيه تجاوزا لما هو معلن من تجريد العرب والعروبة من كل مكرمة ، ومن الصاق كل المثالب بالعرب ، تاريخا ولغة وأرضا وأدوات عيش وأنماط حياة ··· رأوا فيه عداء مستكنا للاسلام ، كدين ، وسعيا لاحياء النحل والمذاهب المجوسية القديمة ، وتمهيد الأرض لهدم الاسلام باشاعة الشك واللا أدرية والزندقة والالحاد·· فالشعوبية، وان أعلنت ، فقط ، عداءها للعروبة ، الا أن حقيقة دعوتها كانت العداء لكل من « العروبة » و « الاسلام » ·· وما كان لهذه الدعوة الا أن تكون كذلك ، لما رأيناه من الارتباط بينهما ، فى التقدم والتقهقر ، ولدى الأنصار والأعداء على حد سواء ! ··

---

(٤٥) عبد الصاحب الدجلى [الشعوبية] ص ١٤ طبعة النجف سنة ١٩٦٠م ·

والذين يبحثون عن التاريخ الذى ظهر فيه ـ بعلم الكلام الاسـلامى فى مبحث الخلافة والامامة ـ اشتراط « قرشية الامام » ـ [رأس الدولة] ـ كشرط من شروط « الاسلام » فى الدولة ، يدركون العلاقة العضوية لهذه القضية بالدفاع عن عروبة الدولة ضد العجمة ، وصلة ذلك بكل من العروبة والاسلام ··· **فاشتراط «قرشية الامام» يعنى اشتراط عروبة الدولة ·· وهذا الشرط لم يظهر فى الفكر السياسى المبكر ، يوم لم يكن هناك خطر على هذه العروبة ·· أما بعد أن أطلت الشعوبية برأسها ، وبدأت مخاطر العجمة على السلطة العليا للدولة ، فان هذا الشرط ـ شرط عروبة الخلافة والسلطة العليا للدولة ـ قد اتخذ مكانة فى الفكر السياسى الاسلامى ، تعبيرا عن انتصار الاسلام للعروبة ، واحتماء العروبة بالاسلام(٤٦) :**

***

وعلى الرغم من أن هارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣ هـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩ م] قد صد خطر الشعوبية بحيلولته بينها وبين السيطرة على جهاز الدولة بما عرف بنكبة البرامكة [١٨٧ هـ ٨٠٣ م] ، الأمر الذى أتاح للعروبة أن تزدهر فتبدع أكثر صفحات حضـارتنا اشراقا بقيادة المعتزلة ، فرسان العقلانية العربية الاسلامية ·· على الرغم من هذا

---

(٤٦) [المعتزلة وأصول الحكم] ص ١٩٠ ـ ١٩٧ ·

التطور الايجابى فى الصراع بين « العروبة الاسلامية » و « الشعوبية المجوسية » ، الا أن كثيرا من الاحباط قد أصاب التيار العربى بهزيمة الخليفة الأمين [١٧٠ – ١٩٨هـ ٧٨٧ – ٨١٣ م] فى صراعه الدامى مع أخيه المأمون [١٧٠ – ٢١٨هـ ٧٨٦ – ٨٣٣م] فتوزعت القوى النشطة فى التيار العربى بين فصائل ثلاث :

- قوم أصابهم الاحباط ، بعد هزيمة الأمين ، فأسلموا أنفسهم الى حياة الدعة والترف ، واعتزلوا صراعات الأجناس والمذاهب الدائرة من حول الخلافة والدولة ..
- وآخرين – ممن غلبت عليهم البداوة – واصلوا الثورة فى صفوف الخوارج على النحو الذى كان منذ قتال على ومعاوية فى معركة « صفين » !
- أما القطاع الأكبر من التيار العربى – وفيه أغلب المعتزلة – فلقد انخرط فى الثورات العلوية التى قادها أئمة الزيدية ضد بنى العباس ..

ونظرت « الدولة » فاذا المخاطر تحدق بها من كل الاتجاهات : الشعوبية الفارسية .. وبداوة الخوارج .. والعرب العلويون .. ثم بوادر حركات استقلالية لأقاليم الأطراف .. وكل ذلك قد أخذ يغرى الدولة البيزنطية بالآمال فى تحريك حدودها واستعادة مستعمرات قديمة لهـا حررها الفتح العربى فى الشام ..

صحيح أن أغلب هذه المخاطر ليس بجديد على الخلافة العربية ·· لكن بنى أمية قد عالجوا أمثالها بالاعتماد على العنصر العربى والعصبية العربية ، لأن مواجهتهم كانت مع الشعوبية الفارسية فى الأساس ·· وحتى العلويين والهاشميين فانهم لم يكونوا يومئذ الممثلين للتيار العربى · بل كان اعتمادهم على الموالى بالدرجة الأولى ···

لكن الجديد الذى واجه به العباسيون هذه المخاطر القديمة ، والخطأ القاتل الذى اقترفه الخليفة العباسى المعتصم [١٧٩ - ٢٢٧ هـ ٧٩٥ - ٨٤١ م] هو توهمه أن طوق النجاة للخلافة من صراعات الأجناس والمذاهب المحلية، فى اعتماد الدولة على قوة عسكرية قوية غريبة عن كل هذه الأجناس والمذاهب المحلية ، ولا علاقة لها بمنطلقات هذه الصراعات ، ولا يربطها ولاء بأى من أطراف هذا الصراع·· لقد توهم هذا ·· وخيل اليه ان ولاء هذه القوة العسكرية الغريبة والمجلوبة من خارج ميدان الصراع سيكون لسيدها وحده : الخليفة العباسى ! ··· فبدأت الدولة تجلب الترك المماليك ، وأقامت لهم مدينة « سامراء » معسكرا خاصا بهم ، يتبع الخليفة فى العاصمة بغداد ···

لكن ·· ما هى الا سنوات تضخم فيها حجم هذه « المؤسسة العسكرية المملوكية » ، حتى أغرتهم القوة بأن يكونوا الطرف الأقوى فى لعبة الصراع ·· واذا لم يكونوا عربا ، فهم - فى الشكل على الأقل - مسلمون ! ·· فكان أن أصبحوا القوة الأعظم فى الدولة ، وبدلا من أن

يكون معسكرهم « سـامراء » تابعا لبغداد ، أصبح هذا المعسكر ـ « سـامراء » هو عاصـمة الدولة ، تتبعها بغداد ؟! ... وكان انقلاب المتوكل العبـاسى [٢٠٦ ـ ٢٤٧ هـ ٨٢١ ـ ٨٦١ م] علامة مميزة على هذا التحول الذى أصاب الدولة بالعجمة ، والذى بدأ مسيرة حضارتنا ـ فى بطء وتعرج ـ نحو الجمود والفقر فى الابداع .. ومرة أخرى ، ظهرت فعاليـات ذلك القانون .. قانون ارتباط « العروبة » ب « الاسلام » ...

فعندما أصبحت الدولة فى قبضة الترك المماليك ، وهم غرباء عن الروح الحضارية للأمة ، لا علاقة لهم بعروبتها ـ لأنهم ترك مماليك ـ ولا علاقة لهم بالجوهر العقلانى لاسلامها ـ لأنهم لم يعرفوا من الاسلام الا بعض طقوسه الشعائرية ـ كان طبيعيا أن يبدأ ترويج مقولة تناقض « العروبة » مع « الاسلام » ـ أو على الأقل عدم تلازمهما ـ لأن « الاسلام » رباط قائم .. ولو شكلا ـ بين هؤلاء الترك وبين جمهور الأمة .. أما « العروبة » فانها مصدر التناقض بين الحاكم والمحكوم ، تستنفر المحكومين للخروج على هذه السـلطة غير العربية ، التى تغلبت على الدولة بقـوة السلاح ! .

لقد سيطر على الدولة عسكر من مثل « وصيف » و « بغـا » و « كيغلغ » و « ياجور » و « بايكباك » و « بكالبا » و « يارجوخ » و « أصغجون » و « كاشتمر »

و « كنجور » و «تكين» و « أغرتمش » و « ابن كنداجيق » و « أساتكين » و « كتبغا » و « خمارويه » و « كافور » و « كجك » و « جقمك » و « خوشقدم » و « تمربغا » و « كولكيراك » .. الخ .. الخ .. ؟؟ !! ..

وعندما حدث هذا الانقلاب المملوكى ، الذى سيطرت به العجمة على الدولة تراجعت « العروبة » و « الاسلام » جميعا ...

● فالتيار العقلانى قد أقصى عن مراكز التأثير .. بل وسجن أعلامه .. وحل محلهم « السلفيون ــ النصوصيون » ، أعداء العقل والرأى والقياس والتأويل .. ف «استعجم الاسلام» لأنه لأطاقة « للجمود النصوصى » بفقه دين عقلانى كالاسلام ... فاتخذت الحياة الفكرية سبيلها ــ ببطء وتعرج ــ الى العصر الذى أعلن فيه غلق باب الاجتهاد ، فتجمد الفكر ، بينما استمر تطور الواقع ، فاتسعت الهوة بينهما ، وبدأت مرحلة « غربة الفكر الاسلامى وغرابته » بالقياس الى واقع الحياة ؟! ..

● أما « العروبة » ، فيكفي لتجسيد المأساة التى أصابتها ، فى عجمة الدولة ، أن نقارن بين الطموح الذى حاولت تحقيقه ، فقطعت فيه أشواطا ، عندما تعربت الحواضر والحياة الفكرية فى عالم الاسلام الفسيح من المحيط الأطلسى وحتى شمال غرب الصين .. وعندما كان السعى حثيثا لانجاز تعريب العامة والجمهور أيضا فى كل

هذه الأصقاع ·· يكفى أن نقارن بين هذا الطموح الذى عرف طريقه للمارسة والتطبيق ، وبين الواقع البائس الذى تراجعت اليه العروبة عندما قامت المحاولات الجادة لتتريك الناس فى عقر دار الأمة العربية ذاتها ، فى ظل السلطة العثمانية ، التى كانت الامتداد لعجمة الدولة والسلطة والسلطان ؟ ! ···

نعم ·· لقد تراجعت « العروبة » و « الاسلام » معا ··· وكان ذلك مدخل أمتنا وحضارتنا الى عصر جمودهما المظلم والوسيط !

وللذين يحبون الاستئناس بآراء أعلام من مفكرينا الاسلاميين فى هذا الذى نقول ، نقدم رأى ثلاثة من هؤلاء الأعلام ···

١ ـ فالأستاذ الامام محمد عبده : يصف هذا التحول الذى أصاب مسيرتنا الحضارية ، فيقول : « انظر ، كيف صارت مزية من مزايا الاسلام ·· (تسامح المساواة) ·· سببا فيما صار اليه أهله ! ·

كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا · ثم أخطأ خليفة ـ « المعتصم العباسى) ـ فى السياسة ، فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيرا له ، ظن أن الجيش قد يكون عونا لخليفة علوى ، لان العلويين كانوا ألصق

ببيت النبى صلى الله عليه وسلم ، **فاراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم** وغيرهم من الأمم التى ظـــن انه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها باحســـانه ، فلا تســاعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ـ وفى ســعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ـ **هناك اســـتعجم الاسلام وانقلب أعجميا ! • خليفة عباسى أراد أن يصــنع لنفسه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه ، أكثر من الجنــد الأجنبى ، وأقام عليه الرؤساء منه • فلم تكن الا عشية أوضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام ، والقلب الذى هذبه الدين ••؟! » (٤٧) •**

٢ ـ **والامام حسن البنا** (١٣٢٤ ـ ١٩٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م) : يرصد هذا التحول الأعجمى ، ويؤكد على دوره فى تحلل الدولة الاسلامية ، فيقول « **ان من أهم عوامل التحلل فى الدولة الاســـلامية •• انتقال السلطة والرياسة الى غــــير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغـــيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الاسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القــرآن ، لصعوبة ادراكهم لمعانيه •• » ؟! •• (٤٨)**

---

(٤٧) [الأعمال الكاملة للامام محمد عبده] جـ ٣ ص ٣١٧ ، ٣١٨ •

(٤٨) حسن البنا [مجموعة رسائل الامام الشهيد] ص ١٣١ ، ١٣٢ • طبعة دار الشهاب • القاهرة •

هنا يربط الرجل بين « العجمـــة » ـ وهى تراجع « العروبة » ـ وبين تراجع « الاسلام » ! ٠٠

٣ ـ أما المقريزى (٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١ م):

فانه يضع يدنا على حقيقـــة لم ينتبه لها الكثيرون ، على خطورتها وبلاغة دلالاتها !٠٠فكثيرون منا هم الذين يعتقدون أن الاستعمار الحديث هو الذى بدأ جريمة تنحية الشريعة الاسلامية ـ وهى قانون الأمة الطبيعى ـ عن عرشـــها وسيادتها فى مؤسسات التشريع والقضاء فى بلادنا ٠٠ لكن المقريزى يخبرنا أن « العجمة المملوكية » هى التى بدأت اجتراح هذه السيئة ، عندما جعلت الحـــكم فى الدواوين السلطانية ـ (أجهزة الدولة) ـ وفى شئون الجند لقانون الخان الوثنى جنكزخان (٥٦٢ ـ ٦٢٤ هـ ١١٦٧ ـ ١٢٢٧ م) بدلا من الشريعة الاسلامية ؟! ٠٠ يضع المقريزى يدنا على هذه الحقيقة فيقول : « ٠٠ ان جنكز خان قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب ســـماه « ياسة » ٠٠ جعله شريعة لقومه ، فالتزموه كالتزام أول المسلمين حكم القرآن ٠٠ فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد المشرق والشـــمال وبلاد القبجاق ، وأسروا كثيرا منهم وباعوهم ، تنقلوا فى الأقطار ، واشترى الملك الصـــالح نجم الدين بن أيوب ـ(٦٠٣ ـ ٦٤٧ هـ ١٢٠٦ ـ ١٢٤٩ م) جماعة منهم سماهم البحرية ، ومنهم من ملك ديار مصر ، وأولهم المعز أبيك (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) ـ وكانوا انمـــا ربوا بدار الاسلام ، ولقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة

المحمدية .. **فجمعوا بين الحق والباطل** ، وضموا الجيد الى الردىء ، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به امر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا اليه النظر فى الاقضية الشرعية .. **واحتاجوا فى ذات أنفسهم الى الرجوع لعادة جنكز خان ، والاقتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم .. على مقتضى الياسة ، وجعلوا اليه ، مع ذلك ، النظر فى قضايا الدواوين السلطانية » ؟! (٤٩)**

هنا ، ارتبطت « العجمة » ـ وهى تراجع عن « العروبة » ـ بالانحراف والتراجع عن « شريعة الاسلام » ؟! ..

فمن التقدم ـ تقدم « الاسلام » و « العروبة » ـ الذى أثمر حضارة «عربية ـ اسلامية » عالمية ، جعلت من الاسلام منارة الدنيا ، التى أضاءت بالعربية أرجاء المعمورة .. الى التراجع الذى سادت فيه « السلفية ـ النصوصية الجامدة » .. وأغلق فيه باب الاجتهاد .. واستهلكت الأمة فيه القرون ـ تحت سلطان السلطة الأعجمية تجتر « الحواشى » و « الهوامش » على « المتون » وتزجى الفراغ بصنع المحسنات اللفظية والزينات الشكلية

---

(٤٩) [الخطط] جـ ٣ ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ . طبعة دار التحرير . القاهرة .

حتى لقد حاولت العجمة تتريكها بعد أن كان الاستعراب شرف الفكر والمفكرين والعلم والعلماء والأدب والأدباء ! ٠

***

اليقظة الحديثة :

لكن أمة عظيمة ، ذات مجد عريق ، وابداع أصيل ، وحضارة متميزة ، وتراث غنى ، واعداء كثيرين ! كأمتنا العربية ، ما كان لها أن تسقط سقوطا دائما فى هـذا المأزق الذى قادتها اليه العجمة « المملوكية ــ العثمانية » ٠٠ فالمحنة تلد الهمة ٠٠ والمأزق يقدح زناد الفكر ٠ وشدة التضييق تجمع وتوحد الأشلاء الممزقة ، طالما بقيت فيها بقية من حياة !؟ ٠٠

لقد بدا ، مع اقتراب القرن الثامن عشر الميلادى من نهايته ، وكأنما التاريخ قد استدار ليضع الامة العربية على مفترق الطرق الذى وضعها عليه ابان ظهور الاسلام ؟! ٠٠

● فكما عجز الفرس ، قديما ، عن قيادة المنطقة فى مواجهة التحديات البيزنطية ، حتى لقد سيطر الروم على الشام ومصر وشمالى افريقيا ٠ وأعانوا الاحباش على السيطرة على اليمن ومحاولة غزو مكة قلب وطن الجماعة العربية ٠٠ كذلك عجز الاتراك العثمانيون عن قيادة المنطقة

فى مواجهة الاستعمار الغربى الحديث .. فانفتحت فى جدار الدولة العثمانية العديد من الثغرات التى نفذ منها الاستعمار ، بالامتيازات وبالاحتلال لكثير من أقاليم وطن العروبة وعالم الاسلام ..

● وكما تقدمت الأمة العربية ، قديما ، تحت رايات الاسلام العربى والعروبة المسلمة ، فقادت المنطقة فى فتوحات التحرير العربية التى أزاحت موجة الغزو البيزنطى وقيود الضعف الكسروى الظالم عن كاهل المنطقة ، لتقيم دولة وحضارة العروبة والاسلام .. وجدت هذه الأمة نفسها ، مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر ، مدعوة الى نضال ، تخرج به وطنها ومصيرها من المأزق . وتجدد به شباب حضارتها ، بتجديد « دينها » كى تتجدد « دنياها » ، سالكة ذات السبيل ، ورافعة ذات الاعلام .. سبيل وأعلام « العروبة المسلمة .. والاسلام العربى » ! .

فالوهابية : أومأت الى الملامح القومية العربية للاسلام ، عندما عارضت ـ لا السلطة العثمانية فحسب ـ وانما « عجمة الدولة » ، بتذكيرها الأمة بشرط « القرشية » ـ أى العروبة ـ لسلطة الدولة العليا ! ..

والسنوسية : سارت على ذات الدرب عندما قال امامها الأول محمد بن على السنوسى (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م) بضرورة عروبة الخلافة .. وعندما

تحدث امامها الثانى أحمد الشريف السنوسى (١٢٨٤ ـ ١٣٥١ هـ ١٨٦٧ ـ ١٩٣٣) عن الاتراك فقـال : لقـد أصبحوا « مقدمة النصارى ـ (أى المستعمرين الاوربيين) ـ فما دخلوا محلا الا ودخله النصارى ؟! » (٥٠)٠٠ وعندما قال المهدى السنوسى : « الترك والنصارى ، انى أقاتلهم معا » ؟! (٥١)

والمهدية : صنعت ذلك ، أيضا ، عندما اعلن المهدى محمد أحمد (١٢٦٠ ـ ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥ م) العداء للأتراك ، وشن عليهم حربا لا هوادة فيها ، ودعا الشعب الى مغايرة الأتراك ؟! (٥٢) ٠

أما تيار الجامعة الاسلامية : الذى تبلور من حـول رائده جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) فهو الذى بلغت فى دعوته روابط « العروبة » و « الاسلام » ـ كمرتكزات لمشروع النهضة المنشودة ـ قمة الوضوح والعمق والشمول ٠٠

● فالأفغانى يؤمن بوحدة النوع الانسانى ، وبوحدة

---

(٥٠) د٠ أحمد صدقى الدجانى [الحركة السنوسية] ص ١٠٧ ، ٢١٦ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م ٠

(٥١) لوثروب ستودارد ـ وشكيب أرسلان [حاضر العالم الاسلامى] جـ ١ ص ٢٩٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧١م ٠

(٥٢) انظر كتابنا [العرب والتحدى] ص ١٨٥ ـ ١٨٨ طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م ٠

الأمة الاسلامية ·· لكنه ينبه على أثر تمايز الأقاليم ، وما يحدثه هذا التمايز من مغايرة بين « الأقوام » ·· فوحدة النوع الانسانى قد جعلت من الكرة الأرضية له وطنا ·· لكن اختلاف الأقاليم فى اللغة والأخلاق والعوائد والبيئة ـ وهى من طبيعة الاقليم ـ قد ميزت الاقاليم بمؤثرات « **وتحت هذه المؤثرات تحصل للأقوام ميزة ، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم ، والذود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة** » (٥٣) ·

● وفى المحيط الاسلامى الكبير تتميز الأمة العربية، كأمة بالمعنى القومى ·· ذلك « **أنه لا سبيل الى تمييز أمة عن أخرى الا بلغتها ·· والأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب · وهذا الامر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه الى دليل أو برهان** » !(٥٤)

● والجامعة الاسلامية لاتعنى تنازل الأمة العربية عن قسمة عروبتها ، المتجسدة فى عروبة اللغة والتراث ·· وانما العكس هو الصحيح ·· **فهذه الجامعة الاسلامية لابد وأن تقترن فيها « العروبة » بـ « الاسلام » ، فيتعرب غير العرب من المسلمين ، لأن العربية هى لسان الاسلام ،**

---

(٥٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ · دراسة وتحقيق : د· محمد عمارة · طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م ·

(٥٤) المصدر السابق · ص ٢٣٧ ·

كما هى لسان العرب ! .. ولذلك ،فأن الافغانى لم يقف من محاولات العثمانيين « تتريك » العرب موقف الرفض والادانة فقط ، وانما دعا الى تعرب الاتراك ، لتنتفي التناقضات من بينهما ، ليس بتآخي « الأمتين » ـ التركية والعربية ـ وانما استهدافا لبلوغهما وضع الأمة الواحدة ، على أن تكون أمة عربية ؟! .. وفى ذلك يقول : « لقد أهمل الاتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية صنعت ذلك ، وسعت لتعريب الأتراك لكانت فى أمنع قوة .. انها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين ـ (العربية والتركية) ـ النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام وصاروا أمة عربية ، بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الاسلامى من عدل .. ولكنها فعلت العكس ، اذ فكرت بتتريك العرب ! وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى ؟! .. فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم فى الاستغراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات واكبر المفاخر ؟! » (٥٥) .

وعلى ذات الدرب يسير عبد الرحمن الكواكبى (١٢٧٠ ـ ١٣٠٢ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م) فيؤكد ان هذه الدورة من دورات نهضة الشرق لابد وان تكون بقيادة

---

(٥٥) المصدر السابق . ص ٣٥٨ .

عربية ، لان دور الاسلام الطبيعي فى هذه النهضــــة ، وامكانات الامة العربية ، ومكانتها المتميزة اسلاميا تقتضى ذلك .. « **فالعرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمــة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . العرب انسب الاقوام لان يكونوا مرجعا فى الدين ، وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيرا .. » (٥٦) ..**

فكما قادوا نهضة الشرق ابان ظهور الاسلام ، عندما التحمت العروبة بالاسلام .. هم اليوم الوسيلة الوحيدة للنهضة الشرقية المأمولة ، وتحت ذات الاعلام .. أعلام العروبة والاسلام .

● وذات الأفكار ، التى تلح على اقتران « العروبة » بـ « الاسلام » وعلى الضرورة الاسلامية لوحدة الأمة العربية ، لتمايزها القومى ، ولأهمية وحدتها القومية فى نهضـــة عالم الاسلام .. ذات هذه الافكار يؤكدها ويفصلها امام الجناح المغربى لتيار الجامعة الاسلامية الشيخ عبد الحميد ابن باديس (١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٠٤م) فيقول : « **ان العرب قد رشحوا لهداية الأمة ، وان الأمم التى تدين بالاسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الاسلام ، وهــو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من**

---

(٥٦) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص٣٥٨ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م .

يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الاسلام •• ونبى الاسلام ، محمد ، صلى الله عليه وسلم • كان رسـول الانسانية •• ورجل القومية العربية والأمة العربية فى آن واحد •• » (٥٧) اما الوحدة السياسية للوطن القومى للأمة العربية فهى واجب •• ذلك أننا « اذا قلنا : العرب فاننا نعنى هذه الامة الممتدة من المحيط الهندى شرقا الى المحيط الاطلانطيقي غربا • والتى تنطق العربية ، وتفكر بها ، وتتغذى من تاريخها ، وتحمل مقدارا عظيمـا من دمها ، وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة • هذه الأمة العربية تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ رابطة الجنس ، ورابطة التاريخ ، ورابطة الألم ، ورابطة الإمل • فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة •• والوحدة السياسية بين شعوبها المستقلة استقلالا حقيقيا •• تمكن •• وتجب » (٥٨) •

● أما حسن البنـا •• الذى قاد أكبر التيارات الاسلامية « المنظمة » فى عصرنا الحديث وأكثرها تأثيرا على الجمهور الاسلامى فى وطن الامة العربية ، بل وخارج هذا الوطن •• فان موقفه من علاقة العروبة بالاسلام ، ومن

---

(٥٧) [كتاب آثار بن باديس] جـ ٤ ص ١٧ ــ ١٩ ، ٢١ • جمع واعداد : د• عمار طالبى • طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م •

(٥٨) المصدر السابق • جـ ١ مجلد ٢ ص ٣٩٨ ــ ٤٠٠ •

قضية الوحدة العربية شـــديد الوضـــوح والحسم ..
وما أجدره بأن يجتذب « العروبيين » و « الاسلاميين » الى كلمة « واحدة ـ سواء » فى هذا الموضوع ! ..

لقد تناول حسن البنا علاقة «العروبة» ب «الاسلام» والموقف من الوطنية ـ التى سماها « القومية الخاصة » ـ ومن « الوحدة العربية » ، ومن « الخلافة الاسلامية » ومن وحدة النوع الانسانى .. تناول الموقف من هـذه القضايا بروح المسلم الذى عاد الى فطـــرته ، متدينـــا بالاسلام : دين الفطرة .. فالاسلام ، من حيث هو عقيدة وشريعة ، هو « وضع الهى » ، جاء به الرسول ، صـلى الله عليه وسلم . للناس كافة .. فهو دين عالمى ، ليس خاصا بجنس من الأجناس أو قومية من القوميات .. وهو بهذه الطبيعة يؤلف رابطة « الأمة » ـ أى الجماعة والجامعة ـ بين كل الذين يتدينون به ، مـن مختلف الاجنـــاس والقوميات واللغات ..

لكن هذا الاسلام العالمى ، فى عقيدته وشريعته ، قد تميز وامتاز بأنه دين الفطرة (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم) (٥٩) .. ولذلك ، فانه ـ فى الأمور الحياتية ـ لا يقفز على «الواقع» ولا ينكره ولا يتجاهله أو يتنكر له ، مادام غير مناقض

---

(٥٩) الروم : ٣٠ .

لمقاصد الشريعة ، التى جماعها : تحقيق انسانية الانسان كخليفة عن الله سبحانه ، في هذا الوجود ..

والانسان المسلم اذا عاد الى فطرته ، فى موضوعنا هذا ، لاشك أنه واجد ما يلى :

لهذا الانسان المسلم حنين وروابط وولاء وانتماء لموطن ولادته ومرتع نشأته ومحل ذكرياته .. وله مثل ذلك نحو « الوطن » الذى شب فيه .. وكذلك نحو « وطن » الأمة التى يشترك معها فى اللغة الواحدة ، التى تسهل سبل الاتصال والتفاعل والوحدة ، ومن ثم تنمى الألفة وعوامل الانتماء والولاء ـ وخاصة اذا ما كانت هذه اللغة هى لغة دينه الأقدس وتراث هذا الدين وفكره ـ .. وله كذلك حنين وولاء وانتماء الى الجماعة التى تدين بدينه ، وهى أمة الاسلام .. ثم هو ، وراء ذلك ، انسان مدعو الى أن يكون عضـــوا عاملا ومتفاعلا ـ بالتأثير والتأثر ـ مع روابط الانسانية التى تضم كل بنى الانسان ..

انها « الدوائر » التى تنطلق من الأخص الى الخاص الى العام فالأعم .. من القرية ، الى الاقليم ، الى الوطن ، الى الدائرة القومية ، الى الجامعة الاسلامية ، الى العالم .. دونما تعارض أو تناقض أو تضاد ..

وهى ذات الفطرة تنفى التناقض بين ولاء الانسان المســلم لأسرتــه ، وعائلتـــه ، وشـــعبه ، وأمتـــه ، **وانسانيته ..**

وهى ذات الفطرة التى لم تعرف التناقض بين حب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لمكة — التى خاطبها ، عند مغادرته اياها مهاجرا ، بقوله : « انك أحب أرض الله الى ، ولولا أن « قومك أخرجونى ما خرجت ! » — وهو الحب الذى تحرك حنينا جارفا عندما قدم الصحابى أصيل بن عبد الله الهذلى من مكة الى المدينة ، فسأله الرسول :

— يا أصيل ، كيف عهدت مكة ؟

— **فقال** : عهدتها قد أخصب جنابها ، وابيضت بطحاؤها ، وأعذق اذخرها(٦٠) ، وأسلب ثمامها(٦١) ، وأمشر سلمها(٦٢) » !

— **فقال الرسول** : حسبك يا أصيل ! .. دع القلوب تقر .. لا تحزنا(٦٣) » ؟!

هى الفطرة التى لم تعرف التناقض بين هذا الحب الأخص الذى امتلأت به نفس الرسول لمكة ، وبين انتمائه الجديد ، منذ الهجرة ، للمدينة ، التى سأله أهلها — يوم العقبة :

---

(٦٠) الاذخر : نبات حجازى . وأعذق : صارت له أفنان .

(٦١) الثمام : نبت حجازى . وأسلب : صار له خوص .

(٦٢) أى أورق .

(٦٣) ابن الأثير [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] — ترجمة الصحابى « أصيل » . طبعة دار الشعب . القاهرة .

ـ « هـل عسيت ، ان أظهـرك الله ، أن ترجع الى قومك وتدعنا » ؟ !

ـ فكان جوابه : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ـ [أى منزلى فى منازلكم ·· وقبرى فى مقابركم ·· ومن طلب دمكم فقد طلب دمى !] ـ أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم(٦٤) » !

ولقد استمرت هذه الفطرة الاسـلامية تعصم « وطنيتنا » من ضيق الأفق الذى يخلق التناقض بينها وبين « قوميتنا » ، كما يعصم « قوميتنا » من التعصب الذى يصطنع العداء بينها وبين جامعتنا الاسـلامية ·· فكان التدرج فى الولاء والانتماء فطرة انسانية تزكيها فطرة الاسلام :

من هذه الروح ، وبهذا المنطق ، واستشرافا لهـذا الأفق نظر الشيخ حسن البنا الى العلاقة بين « الوطنية » و « **الوحدة العربية** » و « **الرابطة الاسلامية** » ·· فقال ـ كمرشد عام لجماعة [الاخوان المسلمين] ـ : « كان الاخوان المسلمون أشد الناس حرصا على خير **وطنهم** ، وتفانيا فى خدمة **قومهم** ·· فالاسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها أن يعمل كل انسان لخير **بلده** ، وأن

(٦٤) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] ج ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ · دراسة وتحقيق : د· محمد عمارة · طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م ·

يتفانى فى خدمته ، وأن يقدم أكبر ما يستطيع من الخير للأمــة التى يعيش فيهــا ، وأن يقدم فى ذلك الأقرب فالأقرب رحما وجوارا حتى أنه لم يجز أن تنقل الزكوات أبعــد من مســافة القصر الا لضرورة ، ايثارا للأقربين بالمعروف ٠ فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التى هو عليها ، وأن يخدم الوطن الذى نشأ فيه ٠٠ فالاخوان المسلمون يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار ، ولا يجدون غضــاضة على أى انســان أن يخلص لبلده ، وأن يفنى فى سبيل قومه ، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار ، هذا من وجهة القومية الخاصة ٠

ثم ان الاسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل الى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ، يوم كان المسلمون مسلمين ؟ ! ٠ وقد جــاء فى الأثر : اذ ذل العــــرب ذل الاسلام ٠ وقد تحقق هذا المعنى حين زال سلطان العرب السياسى ، وانتقل الأمر من أيديهم الى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن اليهم ٠ فالعرب هم عصبة الاسلام وحراسه ٠٠٠ وان تمسكنا بالقوميــة العــربية يجعلنا أمــــة تمتد حدودها من الخليج الى المحيط ، بل الى أبعد من ذلك ، ويبلغ عددها أضعاف الملايين المحصورة فى وادى النيل ، فأى مصرى يكره أن تشاطره هذه الشــــعوب التى تظللها العربية شعوره وآماله وأفراحه وآلامه ؟! ٠ ان من يحاول

سلخ قطر عربى من الجسم العام للأمة العربية يعين الخصوم الغاصبين على خفض شوكة وطنه واضعاف قوة بلاده ، ويصوب معهم الرصاصة الى مقتل هذه الأوطان المتحدة في قوميتها ولغتها ودينها وآدابها ومشاعرها ومطامحها ... فليس فى الدنيا جامعة أقوى وأقرب من جامعة تجمع العربى بالعربى ، فاللغة واحدة ، والأرض واحدة ، والآمال واحدة ، والتاريخ واحد ...

ان وحدة العرب أمر لابد منه لاعادة مجد الاسلام واقامة دولته واعزاز سلطانه .. فالعرب هم أمة الاسلام الأول ، وشعبه المتميز ، وبحق ما قال الرسول ، صلى الله عليه وسلم : «اذا ذل العرب ذل الاسلام». ولن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها . فكل شبر أرض فى أرض وطن عربى نعتبره من صميم أرضنا ومن لباب وطننا .. ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لاحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها . وهذا موقف الاخوان المسلمين من الوحدة العربية .

ان الاخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة ، باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، ولا يرون بأسا أن يعمل الانسان لوطنه ، وأن يقدمه فى العمل على سواه . ثم هم ، بعد ذلك ، يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض ، ثم هم يعملون للجامعة الاسلامية ، باعتبارها السياج الكامل للوطن الاسلامى

العام . ولى أن أقول ، بعد هذا : ان الاخوان يريدون الخير للعالم كله ... وأنا فى غنى ، بعد هذا البيان ، عن أن أقول : انه لا تعارض بين هذه الوحدات ، بهذا الاعتبار ، وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها ..

أما الخلافة الاسلامية ، فان الاخوان المسلمين يجعلون العمل لاعادتها فى رأس منهاجهم ... ولكنهم يعتقدون أن ذلك يحتاج الى كثير من التمهيدات التى لابد منها ، وأن الخطوة المباشرة لاعادة الخلافة لابد أن تسبقها خطوات :

ـ لابد من تعاون ثقافى واجتماعى واقتصادى بين الشعوب الاسلامية كلها ..

ـ يلى ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد ..

ـ يلى ذلك تكوين عصبة الأمم الاسلامية ..

حتى اذا استوثق ذلك للمسلمين ، كان عنه الاجتماع على « الامام(٦٥) » ...

فهل هناك أوضح وأعمق وأشمل ـ فى عرض موقف الفكر الاسلامى من القومية العربية والوحدة العربية ـ من هذا الذى أعلنه الامام حسن البنا ؟! ..

---

(٦٥) حسن البنا [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٥ ـ ٥٠ .

ان الوحدة الوطنية هى الشرط الضرورى والطـريق الوحيد للوحـدة العربية ••• والوحـدة العربية للوطن القومى للأمة العربية واجب ملح ، لأن جامعة العروبة هى « أقوى الجامعات وأقربها » ••• أما الخلافة الاسلامية ، فانها «رمز» لتضامن وعلاقات ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية تفضى الى « عصبة أمم اسلامية » ، تشد أزر المستضعفين فى مواجهة الأقوياء •

***

هكذا •• وعلى هذا النحو الواضح والعميق والشامل والحاسم •• عادت الى الفكر الاسلامى صحوته فى عصرنا الحديث ، فخرج من عصوره المظلمة ، ليواصل ـ بالاجتهاد والتجديد ـ تألقه الأصيل ، فى كثير من قضايا « الدين » و « الدنيا » •• ومنها قضية العلاقة العضـوية والرابطة الجدلية ما بين « العروبة » و « الاســلام » ، والموقف الاسلامى من الوحدة القومية لوطن الأمة العربية •

عودة النغمة النشاز ؟ ! :

لكن ••• بالرغم من هذا الوضوح والعمق والحسم الذى رأيناه : علاقة عضوية وروابط جدلية بين «العروبة» و « الاسـلام » ، وانحيازا من الفكر الاسـلامى ، القديم

والحديث ، الى ضرورة النضال فى سبيل الوحدة العربية ، **باعتبارها : وحدة المسلمين العرب ـ وهم الأغلبية الساحقة فى الأمة العربية ـ ولأنها الطريق الوحيد الى نهضة الاسلام والمسلمين من وراء الوطن القومى للأمة العربية ، لما للأمة العربية من دور ريادى وقيادى فى المحيط الاسلامى ، تاريخيا ، ولمكان العربية والعروبة من الاسلام الدين والحضارة والتراث ...**

بالرغم من هذا الوضوح .. فان ساحة الفكر والسياسة قد عادت ، مرة أخرى ـ رغم زوال عصور العجمة « المملوكية ـ العثمانية » وازورار فكريتها المتخلفة ـ عادت ساحة الفكر والسياسة ، فى وطننا العربى ، تشهد. مرة أخرى ، **تلك النغمة النشاز** ، الزاعمة تناقض « العروبة » و « الاسلام » ، وعداء « الاسلام » لـ « القومية العربية » و « الوحدة العربية » !! .

● **فالمفكر الاسلامى ، المرحوم سيد قطب** [١٣٢٤ ـ ١٣٨٦ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦ م] : يدعى « أن « الوطنية » و « القومية » و « التجمعات الاقليمية » ، التى برزت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، قد أدت دورها خلال هذه القرون .. ولم تعد تملك رصيدا جديدا(٦٦) » ! ..

---

(٦٦) سيد قطب [معالم فى الطريق] ص ٦ ، ٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م .

وهو ، بذلك الادعاء ، يغفل ويتجاهل الدور الذى على هذه الروابط والجوامع أن تؤديه ـ فى ظروف بلادنا وما ماثلها ـ فى النضال ضد الاستعمار ، وفى سبيل النهضة ٠٠ فهى لم تستنفذ ، بعد ، مهامها ٠٠ ثم انها ليست هى « قوميات الغرب » العدوانية ، المعادية لقيم وأخلاقيات شرائع السماء ، بل انها ـ فى مثل واقعنا ـ السبيل للنهضة التى تمكن انساننا من احياء وتطبيق القيم والأخلاقيات والشرائع التى جاءت بها الأديان ٠٠

وهو ينفى ـ فى معارضة لما أثبتناه بهذه الدراسة ـ أية علاقة بين حضارتنا وبين العروبة ، ويتبنى مقولة تناقض صفة « العربية » مع صفة « الاسلامية » فى هذه الحضارة ، فيقول : « ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما « عربية » ، انما كانت دائما « اسلامية » ، ولم تكن يوما «قومية» انما كانت دائما «عقيدية» ٠٠ (٦٧) » ٠

وهذه مقولة قد دحضناها ، عندما أثبتنا انتفاء التعارض ـ بل وقيام العلاقة العضوية والروابط الجدلية ـ بين « العروبة » و « الاسلام » ٠٠

ثم هو يذهب فيسقط أى قيمة للرابطة القومية والقسمات القومية فى ايجاد الدائرة الأخص فى المحيط الأوسع للملة والاعتقاد ٠٠ فيقول : « انه لا وطن للمسلم

---

(٦٧) المرجع السابق ٠ ص ٥٩ ٠

الا الذى تقام فيه شريعة الله ، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط فى الله ، ولا جنسية للمسلم الا عقيدته التى تجعله عضـوا فى « الأمة المسلمة » فى « دار الاسلام » ، ولا قرابة للمسلم الا تلك التى تنبثق من العقيدة فى الله ، فتصل الوشيجة بينه وبين أهله فى الله ٠٠ » (٦٨)

وهذه المقـولة ـ التى تتناقض كل التناقض مـع « نظرية الدوائر » ، التى عرضناها للامام حسن البنا ـ تتجاهل حقائق تبلغ فى فكر المسلم حد البديهات :

ـ فوطن المسلم هو وطنه ٠٠ حتى لو لم تطبق فيه الشريعة الاسلامية ٠٠ وعليه الجهاد لتقوم الشريعة فيه ! ٠٠

ـ وجنسية العقيدة ٠٠ وعضوية الأمة المسلمة فى دار الاسلام لا تعنى القفز على الواقع المتمثل فى الدوائر ـ الوطنية والقومية ٠٠ التى تسبق جامعة الاسلام ٠٠ فرباط الأمة لا يلغى رباط الأسرة ، ولا ينفى ذاتية الفرد ! ٠٠

ـ والقرابة لاتختص برباط العقيدة الدينيـة ٠٠ فالاسلام لاينكر بنوة المسلم لأبويه المشركين ، ولايهدر حقوقها ، بل يدعوه للبر بهما ـ بر الابن بأبويه ـ وللقيام بحقوق القرابة ـ مع انتفاء ربـاط العقيدة الدينيـة ـ (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنـا على وهن

---

(٦٨) المرجع السابق ٠ ص ١٥١ ٠٠

وفصاله في عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصـــير .
وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما
وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ،
ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) (٦٩) .

والزوج المسلم للزوجة غير المسلمة ـ الكتابيـة ـ
قريب لهـا ، وهى قريبة له ـ بل هى سكن له ـ وان لم
تنبثق هذه العلاقة ـ علاقة القرابة ـ من العقيدة في الله! ..

تلك هى مقولة الأستاذ سيد قطب ـ اذا عرضناها
على ما قدمنا من فكر الاسلاميين فى هذه القضية ، ظهر
الفارق بينهما بجلاء .. **فارق « الفكر الاسلامى » عن
« نفثة الأديب المظلوم » ؟! ..**

● **وكاتب آخر** : يلتقط هذا الخيـط ، فينفى أن
تكون للروابط القومية أية قيمة ، ويحكم بأن علاقة المسلم
المصرى بأخيه المصرى مساوية تماما لعلاقتـه بالمسلم فى
أندونيسيا ونيجيريا وتركستان (٧٠) ؟! .. بل ويصل
فى هجومه على دعاة القومية العربية الى حد وصفهم بأنهم
« الشعوبيون العرب » (٧١) ؟؟!! ..

---

(٦٩) لقمان :١٤ ، ١٥ .

(٧٠) د. محمد رشاد خليل . مقال بعنوان [شخصية مصر التاريخية] مجلة [الدعوة] عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٨ ٥ مارس سنة ١٩٧٨م .

(٧١) مجلة [الدعوة] عدد ربيع الثـــانى سنة ١٣٩٨هـ مارس سنة ١٩٧٨م .

● واحدى الجماعات الاسلامية الجديدة - (الجهاد) - تجعل هذا الفكر - الخارج عن سياق تراث الاسلام فى هذه القضية ، والمناقض لآراء أئمة الصحوة الاسلامية الحديثة فى علاقة « العروبة » ب « الاسلام » - تجعل (جماعة الجهاد) من هذا الفكر رأيها المعلن ، فعندما يسأل أحد قادتها :

- « هل هناك علاقة بين القومية والاسلام فى تصوركم ؟

- (يجيب : « القومية نوع من أنواع العنصرية المرفوضة فى الاسلام ، وهى مناصرة القوم ومؤازرتهم لمجرد الانتماء لهم قرابة أو لغة أو مكانا أو جنسا . أما الاسلام فدعوة عالمية للناس كافة ، والرابطة فيه تقوم على أساس عقائدى ، فالولاء لأولياء الله مهما بعدت درجة القرابة أو اختلفت اللغة أو نأى المكان ، والعداء لأعداء الله ولو كانوا أولى قربى . فدعوة القومية ان هى الا شعار من تلك الشعارات الأفاكة التى بثها المستعمرون وروجوها ليسهل لهم تدمير الأمة الاسلامية بعد خلعها من ربطة الاسلام التى هى منبع قوتهم ومصدر عزتهم ، وليحولوا الأمة الى فرق متناحرة ودويلات هشة يمكن السيطرة عليها ، بل واذلالها . وقد كان ... » !!

وصاحب هذا الفكر ، يعلن - فى ذات الحديث -

أن جماعته تسـير على الدرب الذى ارتاده المرحـوم سيد قطب (٧٢) ؟! ••

● وقاضى سودانى : يجلس على منصـة « محكمة الجنايات » ليحاكم عددا من الشباب بتهمة الانتماء الى أحد الأحزاب القومية ـ حيث يحظر القانون قيام الأحزاب ـ فيحول سهام الاتهام الى « القومية العربيـة » و « الوحدة العربية » •• ويقول ـ بجرأة مذهلة ـ : « ومن المعلوم ، ضرورة ، أن دعوة القومية العربية والوحدة العربية هى دعوة للعنصرية والشعوبية •• تعارض الشريعـة •• وهذا مما تجمع عليه أقوال المسلمين •• » (٧٣) ؟؟؟!!!••

ونحن لانريد أن نقول لهؤلاء الذين يصفون «القومية العربية » « بالعنصرية » : انكم تتحدثون عن القوميـات العلمانية العدوانية الأوربية •• أما القومية العربية فهى دائرة انتماء لأمة تسعى للتحرر من العدوان ـ وهى ليست أيديولوجية مناقضة للاسلام ، ولاجدارا يحول بين المسلمين العرب وبين النضال فى سبيل التضامن الاسلامى والاخاء الاسلامى •• وأن الذين يحولون بين العـرب وبين أن يمدوا نطاق نضالهم الى ما وراء المحيط والخليج ليسوا

---

(٧٢) عبود الزمر • صحيفة [النور] العدد ١٥٥ ـ ٧ جمادى الأولى سنة ١٤٠٥هـ ٢٧ فبراير سنة ١٩٨٥م •

(٧٣) القاضى : د• المكاشفى طه الكباشى • وقائع جلسـة محكمة جنايات أم درمان (رقم ١) بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٨٥م •

هم القوميين وانمـــا الشعوبيـون فيمـــا وراء المحيط والخليج ؟! ••

كما أننا لانريد أن نقول للذين يصفون القوميـــه العربية والوحدة العربية « بالشعوبيــة » : ان مصطلح الشعوبية ، يعنى ، تحديدا : « النزعة التى تنكر تفضيل العرب •• وتحاول تصغير شأنهم ، والحط منهم •• »(٧٤) •• فالشعوبية هى النقيض لحركة القومية العربية ولدعاة ودعوة الوحدة العربية !••

نحن لانريد تفصـيلا لهذا القول فنضيف الى هذه الصفحات تفنيدا لهذا الفكر الغريب ، اذ يكفى لتفنيده عرضه على النصوص الواضحة والعميقة والشاملة التى قدمناها للامام الشهيد حسن البنا فى هذا الموضـوع ـ وهو الامام الذى يزعم الانتساب الى دعوته أصحاب هذا الفكر النشاز !! ••

لكن السؤال الجوهرى ، الذى سـقنا هذه الآراء النشاز ، كى نسأله هو :

اذا كانت مقولة التناقض بين « العروبة » و «الاسلام» قد ألقيت فى مجرى تطورنا الفكرى والحضارى من خارج

---

(٧٤) انظر [لسان العرب] لابن منظـــور • طبعة دار المعارف • القاهرة • وكذلك [المعجم الوسيط] وضع مجمع اللغـــة العربية • القاهرة •

المكونات الأصيلة لفكرنا العربى الاسلامى ـ من الشعوبية الفارسية تارة ومن العجمة « المملوكية » ـ العثمانيــة » تارة أخرى ـ ٠٠ واذا كان فكر اليقظــة والصــحوة الاسلامية الحديثة قد دحض هذه المقولة الشــاذة ـ على النحو الذى قدمنا ـ فما هو المصــدر الذى دفع هذه المقولة ، مرة أخرى ، لتطل فى فكر الحركة الاســلامية المعاصرة على لســان المرحوم سيد قطب ؟؟ ٠٠ ذلك هو السؤال ، الذى تكشف اجابته مبلغ شــذوذ هذه المقولة عن سياق الفكر الاسلامى لأمتنا عبر تاريخنا الطويل ٠٠

ولحسن الحظ ٠٠ فان الذين قرأوا فكر المرحوم الأســـتاذ أبـو الأعلى المودودى (١٣٢١ ـ ١٣٩٩ هـ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩ م) أمير (الجماعة الاسلامية) فى الهند وباكســتان ، ثم قرأوا فكر المرحلة الأخيرة للأســتاذ سيد قطب ، يدركون ـ دون عناء ـ كيف جاء فكر سيد قطب فى كتابه [معالم فى الطريق] « صورة طبق الأصل » من فكر المودودى حول القضايا التى عرض لهـا هــذا الكتاب ٠٠ ومنها علاقة الاسلام بالقومية ٠

لكن الذين اقتدوا بسيد قطب فى رفضه للقوميــة وعدائه للقومية العربية لم يدركوا خصوصية الملابسات التى أفرزت فكر المودودى فى القومية ، والخطأ البالغ فى اســتعارة سيد قطب لهذا الفكر وتوظيفه فى اطار ملابسات لاوجه للشبه بينها وبين الملابسات الخاصــة التى أفرزته فى شبه القارة الهندية ٠٠

ـ لقد صـــاغ المودودى فكره عن القوميــة ما بين سنة ١٩٣٧ م و سنة ١٩٤١ م عندما كان (حزب المؤتمر الهندى) يسعى لبناء الهند « الموحدة المستقلة الديمقراطية العلمانية » •• ولقـد أسس حزب المؤتمر دعوتـه على مقولة أن الهند « قومية واحدة » •• وتلك هى الفكرة التى رفضها المودودى وقاد ضـدها صراعا فكريا وسياسا طويلا انتهى باستقلال باكستان سنه ١٩٤٧ ٠

ـ وكانت حجة المودودى أن الهند متعددة القوميات ، من المنظور الحضارى ، وأن وحدة الهند ستعنى السيطرة الأبدية للأغلبية الهندوسية (٧٥ ٪ من السكان) على الأقلية المسلمة (٢٥٪ من السكان) •• وأن « القوميــة الواحدة » المزعومة ، فى ظروف الهند ، لاتعدوا القومية بالمعنى السياسى ، المؤسسة على وحـدة الأرض ، والتى تتجاهل التعددية القومية لسكان الهند ، المؤسسة على التمايز الحضــارى •• فدافع المودودى عن التعـددية القومية ، ودعا الى رســم مستقبل الهند المستقلة وفق معايير هذه التعددية القومية •• وفى ذات الوقت أدان هذه « القومية السياسية » ، بمضامينها الغربيــة العلمانية ، التى تعزل الاسلام ـــ على الرغم من أنه دين ودولة ـــ عن الهيمنة على المؤسسات المنظمة لشئون الحياة ••

ـ فضد هذه « القومية الســياسية » ، التى رآها المودودى سبيلا لسيطرة الأغلبية الهندوسية على الأقلية

المسلمة ، والتى رآها ــ بمحتواها العلمانى ــ أيديولوجية معادية للاسلام ••• ضد هذه القومية بعينها كان هجوم المودودى •• فلقد قال عنها : « انها دين جديد » يناقض « الدولة الفكرية » الاسلامية ، ويحول بين أصحابها وبين النزعة « الانسانية » ، وهى تعنى « أن يحل الشعب منزلة الألوهية » !•• ولذلك فليس لهـــا مكان ولا « حظ فى ايجاد دولة الاسلام الفكرية وتركيبها » (٧٥) •• ثم مضى الرجل فساق ضد هذه القومية الهندوسية الكافرة كل الاتهامات ، التى جاء سيد قطب فانتزعها من ملابساتها ووظفها فى اطار الأمة العربية ، ذات القومية الواحدة ، والتى يكون المسلمون فيهـــا أكثر من ٩٥٪ من تعداد أبنائها ؟! ••

ــ ان الذى رفضه المودودى هو القوميـــة السياسية (Caltural Nationality) بينما كان داعيا مناصرا للقومية الحضارية (Political Nationality) ••• فهل من الدقة ــ ولا نقول الأمانة ؟! ــ أن تؤخذ بعض عبـــارات الرجل لتوظف فى رفض قوميتنا العربية ، وطابعها الحضـــارى واضح كل الوضوح ، وأغلبيتها الاسلامية لاتخطئها عين ،

---

(٧٥) المودودى [نظرية الاسلام السياسية] ص ٧١ ، ٧٥ طبعة بيروت ــ ضمن مجموعة عنوانها « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور » سنة ١٩٦٩م •

ونزعتها الانسانية التحررية لاتخفى ، وعلاقتها بالاسلام على النحو الذى قدمنا ؟! ••

وهل من الدقة ــ ولا نقول الأمانة ؟! ــ أن يغفل الناقلون النصوص الأخرى الكثيرة التى ناصر فيها المودودى القومية ، فيضللون بذلك الاغفال قطاعات شبابية من الحركة الاسلامية ، ويشعلون نيران معارك فكرية مفتعلة تقسم صفوف الأمة الى « اسلاميين ــ لاقوميين » و « عروبيين ــ لا اسلاميين » ؟! ••

ان المودودى ، الذى استندوا اليه فى هذه المقولة النشاز ، هو الذى يقول عن القومية : « •• **أما القومية ، فان أريد بها الجنسية (Nationality) فهى أمر فطرى لا نعارضه ، وكذلك ان أريد بها انتصار الفرد لشعبه ، شريطة أن لايستهدف تحطيم الشعوب الأخرى ، وان أريد بها حب الفرد لشعبه فنحن لا نعارضها كذلك ، اذا كان هذا الحب لايعنى معنى العصبية القومية التى تجعل الفرد يحتقر الشعوب الأخرى •• وان أريد بها مبدأ الاستقلال القومى ، فهو هدف سليم كذلك ، فمن حق كل شعب أن يقوم بأمره ، ويتولى بنفسه تدبير شئون بلاده • اما الذى نعترض عليه ونعتبره شيئا ممقوتا نحاربه بكل قوة فهو القومية التى تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم ، والحق عندها هو ما كان محققا لمطالبها**

واتجاهاتها ورفعة شأنها ، ولو كان ذلك بظلم الآخرين وإذلال نفوسهم !٠ » (٧٦) ٠

هكذا سقطت وتسقط مقولة التناقض بين « العروبة » و « الاسلام » ، والزعم برفض الاسلام لقوميتنا العربية والوحدة القومية لوطن الأمة العربية ٠٠ سقطت قديما لأنها كانت « شذوذا أعجميا » ألقته الشعوبية والعجمة « المملوكية ــ العثمانية » فى المجرى الذى شهد **ارتباط عروبتنا المسلمة باسلامنا العربى** ٠٠ وتسقط حديثا لاستنادها الى نصوص مبتورة مجردة من الملابسات التى أفرزتها وموظفة فى اطار مغاير ، بل ومناقض ، لذلك الذى أفرز تلك النصوص ! ٠٠

***

بقى أن نقول ، فى ختام هذه الصفحات :

ــ ان عروبة اسلامنا لا تعنى اختصاصه بالعرب من دون الناس ، وانما تعنى **ضرورة اقتران العربية بالاسلام،** تنتشر أينما ينتشر ، وتدرس حيثما يتم التبشير بعقيدته وشريعته ٠٠ لأنها السبيل الوحيد الحق لوعى الاسلام الحقيقى وفقه عقيدته وشريعته وأقامة نظامه فى هذه

---

(٧٦) المودودى [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٢٥ ، ٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨م ٠

الحياة .. ان ترجمة معانى القرآن قد تيسر الايمان بعقائد الاسلام ، والتعبد بشعائره .. فالعقائد والشعائر ثوابت قد اكتملت ، وليست موضوع تطور ولا ابداع ولا اجتهاد .. ولكن الابداع الحضارى والسياسى يستلزم الاجتهاد ، المتطلب فقه العربية وعلومها الى الحد الذى ييسر فقه الاعجاز البيانى للقرآن الكريم .. ولذلك فان حضارة الاسلام كانت وستظل عربية فى جوانب الفكر والابداع .. ومن ثم فلابد من اقتران العربية والتعريب بالاسلام ، فتنمو العروبة — أفقيا ورأسيا — بنمو وانتشار الاسلام ..

— وان الادراك السياسى لعلاقة « العروبة » ب « الاسلام » يتجاوز ، فى الخطر والأهمية ، الميدان الثقافى و « النظر الفكرى » الى حيث يمثل طوق النجاة لأمتنا من التشرذم .. فالحديث عن مشروع « اسلامى — لاعربى » لن يجد فيه العرب غير المسلمين مكانا لهم — وتلك ثغرة فى جدار أمة مستهدفة يتربص بها أعداء كثيرون : — .. كما أن الحديث عن مشروع « عربى — لا اسلامى » لن تجد فيه الأقليات المسلمة غير العربية مكانها لها — وتلك ، أيضا ، ثغرة لايجب الاستهانة بمخاطرها .. أما الوعى بعمق العلاقة بين « العروبة » و « الاسلام » فهو الذى سيتيح لمشروعنا الحضارى أن يجمع المسلمين غير العرب ، برباط الاسلام ، الذى تتدين به أغلبية الأمة .. وأن يجمع العرب غير المسلمين ،

برباط العروبة ، التى هى قومية أغلبية الأمة •• كما أنه هو السبيل الى جمع التيارات الممثلة لأصـــالة الأمة : « العروبيين » و « الاســـلاميين » ، فى مواجهـة قوى « التغريب » والغزو الفكرى والاستلاب الحضارى ••

ـ وان اقامة وحدة الدولة القومية للأمة العربية ، هى فى الحقيقة وحدة للمسلمين العرب ـ أغلبية الأمة العربية ـ وتحقيق للشرط الأول من شروط النهضـــة الاسلامية الأشمل ، بايجاد القيادة والريادة العربية فى المحيط الاسلامى ، وهى القيادة التى ارتبطت عزة الاسلام بقوتها ومنعتها ، كما اقترن تراجعه بما أصابها من تدهور وتشرذم واضمحلال •• وصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عنـدما قال : « الكفر فى المعجمة •• ولا يبغض العرب الا منافق •• واذا ذل العرب ذل الاسلام » ! ••

٣

الاسلام والحضارة الغربية

[علاقة الموروث بالوافد]

تاريخ القضيـة

القضية المثارة هى : قضية « الموروث » و « الوافد » ·· أو « الوافد » و « الموروث » · وفى اعتقادى أن اثارة هذه القضية ، والجدل الذى يدور حولها ، هو أمر طبيعى ، ليس فيه أى افتعال ··

فمن الأمور الطبيعية ، بل والضرورية ، بالنسبة لأية أمة أو حضارة أن تثار هذه القضية ، ويدور الجدل حول العلاقة ما بين « الوافد » و « الموروث » ، وحول الموقف من « الموروث » أو الموقف من « الوافد » ، عنـــدما يكون هنـــاك احتكاك بين حضـــارتين ، بين ثقـــافتين ، بين منظومتين فكريتين تنتسب كل منهما لأمة من الأمم ، ويقوم بينهما تمايز أو خلاف فى الروح أو السمات والقسمات ··

وهذه القضية ـ قضية العـــلاقة بين « الموروث » و « الوافدين » ـ بالنسبة لنا ، ليست حديثة الظهـور ،

وليس صحيحا أنها بنت اليوم ·· كما أنها ليست مفتعلة — كما أشرت — بأى حال من الأحوال··قد يكون الصوت — الذى يثيرها — يعلو الآن بالجدل حولها أكثر من ذى قبل·· لكننا اذا رجعنا لنراجع صفحات مضت فى تاريخنا الحديث· ونظرنا الى « خريطة » حياتنا الفكرية فى بداية الغزوة الاستعمارية الحديثة للشرق ، ولوطن العروبة وعالم الاسلام على وجه التحديد ، فسنجد أن هذه القضية قد أثيرت بصدد الموقف من الفكرية التى جاءت الينا فى ركاب هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة ·· فمنذ غزوة بونابرت [١٧٦٩ — ١٨٢١م] وحملته على مصر سنة ١٧٩٨م كانت البعثة العلمية ، وكانت المطبعة ، وكان الفكر مجسدا « للوافد » الذى جاء مع هذه الحملة وأيضا كان ذلك « الوافد » الفكرى مميزا لهذه الغزوة الحديثة عن سابقتها الصليبية التى داهمتنا فى العصور الوسطى [٤٨٩ — ٦٩٠هـ ١٠٩٦ — ١٢٩١م]. فالصليبيون كانوا فرسان اقطاع ، همج ، لا يملكون سوى القوة الغاشمة ، وكما يقول أحد المؤرخين العرب الذين عاصروا تلك الغزوة الصليبية ، وهو أسامة بن منقذ [٤٨٨ — ٥٨٤هـ ١٠٩٥ — ١١٨٨م] فان الفرسان الصليبيين هؤلاء كانوا « كالبهائم ، ليست لهم « فضيلة » الا القتال : » ·· فبتعبير ذلك المؤرخ كانوا فرسان اقطاع، جاءوا من مجتمعات مظلمة ومتخلفة ، بالمقاييس الحضارية ·· وبالتالى فلقد تعلموا من الشرق الاسلامى ، **ولم يكن لديهم فكر يغزون به هذا الشرق** ، لقد أقاموا كيانات استيطانية

صليبية لاتينية فى قلب وطن الأمة العربية الاسلامية ، لكنهم لم تكن لديهم اضافة فكرية لأن أوربا ، فى ذلك التاريخ ، كانت متخلفة ، تعيش عصورها الوسطى والمظلمة ، على حين كان الشرق العربى الاسلامى هو المتقدم حضاريا •

ونحن نعلم أن هذا الاحتكاك العنيف بين الغزاة الصليبيين وبين الشرق المتحضر نسبيا ، فى ذلك التاريخ ، كان من مثيرات ومؤثرات وأسباب النهضة الأوربية فيما بعد ، لأنهم قد تعلموا من الشرق أثناء هذا الاحتكاك العنيف •• كما تعلموا من احتكاكهم السلمى والعنيف بحضارتنا على أرض الأندلس •

أما الغزوة الاستعمارية الحديثة ، التى تعرض لها وطن العروبة وعالم الاسلام ، فلقد تميزت عن الغزوة الصليبية ، لأنها جاءت ، ليس فقط بالمدفع والبارود والجيش المنظم تنظيما حديثا ، وليس فقط بالشركات الرأسمالية والنهب الاقتصادى الاستعمارى المنظم ، وانما جاءت ، أيضا ، بفكرية الحضارة الغربية ، فكرية عصر النهضة الأوربية ، هذه الفكرية التى تألقت وأبدعت فى مختلف مجالات العلوم والفنون • كانت هذه ميزة تميزت بها هذه الغزوة الحديثة ، ومن هنا كانت حملة بونابرت شاملة للقوة وللفكر معا ، وكذلك كان حال كل الحملات الاستعمارية التى جاءت بعد ذلك لتخضع الشرق لهيمنة الاستعمار الحديث •

لقد نشـــأ منذ ذلك التـــاريخ ما يسمى بفـــكرية « التغريب » و « المتغربين » ·· ذلك أن الحضارة الغربية ، على عكس الحضارة العربية الاسلامية ، قد نهجت نهجا سيئا، **استعلائيا وعدوانيا** فى كل المجتمعات التى غزتها ·· فنحن نعلم أن العرب المسلمين ، عندما فتحوا البلاد التى فتحوها ، قد احتضنوا المواريث الحضارية القديمة ·· فالمواريث التى كانت قد هجرت وماتت أحيوها ، ودخلت هذه المواريث ـ وبالتحديد : الصالح للبقاء من هذه المواريث ـ فى نسيج الحضارة العربية الاسلامية الجديدة ، أما الحضارة الأوربية الغازية ، فلقد مارست سياسة النسخ والمسخ والتشويه مع المواريث الحضارية للشعوب والبلاد التى فتحتها هـــذه الغزوات الاستعمارية الحديثة ·· فكما صنعوا مع الهنود الحمر ،أرادوا وحاولوا أن يصنعوا مع المواريث الحضارية للشعوب الافريقية ، وفي آسيا ، وفى كل البلادالتى غزوها فهذه « الفكرية التغريبية » أرادت لهذه الشعوب المستعمرة أن تتحول لا الى الحضارة الغربية ، كما زعموا ويزعمون ، فهم لا يمكنون هذه الشعوب من أن تصـــبح مثلهم فى الحضارة ، بامتلاك مصادر القوة فى الحضارة الغربية ـ وهى كثيرة وغنية ـ **وانما أرادوا أن تتحول هذه الأمم وهـــذه الشعوب الى « هامش حضـــارى » ·· مجرد « هامش حضارى »·· الى موقع « التبعية الحضـــارية » للمركز الأوربى** ، وكان الهدف ، ليس تحضر هذه البلاد ونهضتها ، لأن الاستعمار ، بداهة ، ليس حريصا على هذا الهدف وهذه

الغاية ، وانما كان الهدف هو أن يصبح العقل تابعا « للمركز الأوربى » والغربى ، لأن هذا هو السبيل الأمثل والأضمن لتأييد ، بل وتأبيد الغزوة الاستعمارية والنهب الاستعمارى، وهذا هو الضمان الرئيسى كى نتحول الى « هامش أمنى » يحمى أمن « المركز الأوربى » والغربى ! ·· فكان سعى هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة ليس فقط الى أن نصبح قواعد لأمن الغرب ، وليس فقط الى أن نصبح سوقا ويدا عاملة رخيصة لاحتكارات الغرب الرأسمالية ، وانما ، أيضا ، وحتى يدوم ويتأبد هذا ، لابد من تكبيل هذا العقل فى الوطن العربى والاسلامى بقيود التبعية الفكرية ·· **لقد وقفوا موقف العداء من « خلافنا الحضارى » لهم ، و « اختلافنا الحضارى » عنهم ·· وكل ما منوا علينا به من حرية فى « الخلاف ·· و الاختلاف » هو أن نختلف خلافهم ونتقسم انقسامهم ·· فتكون « محافظتنا » هى «محافظتهم» ، و « ليبراليتنا » هى « ليبراليتهم » و « تقدميتنا » هى « تقدميتهم » و « شموليتنا » هى « شموليتهم » ·· فلا نخرج عن اطار « التبعية ·· والاحتواء » ·· لقد كان هذا هو « الخيار » ــ ان جاز أن يسمى خيار ــ الذى سمحوا به لعقلنا ·· حتى لقد أصبحت التبعية للغرب هدفا يسعى اليه المستضعفون ، وصارت « قيدا ــ لذيذا ! » تجرى وراءه النخبة والصفوة ، لتجعل وطننا قطعة من أوربا ، ولتجعل هذه الأمة أوربية العقل والحياة ، نأكل كما يأكل الأوربيون ، ونلبس كما يلبسون ، ونفكر كما يفكرون ،**

ونصيب كما يصيبون ، ونخطىء كما يخطئون ، ونعيش كما يعيشون ! ..

ولقد بلغ الحال ، فى اطار هذه التبعية الفكرية التى فرضت علينا ، الى الحد الذى أصبح فيه كل رجال الفكر فى بلادنا لا يستطيعون أن يؤثروا فى الأمة ـ وفى تحديد أذواقها وأزيائها مثلا تأثير صاحب دار أزياء فى مركز من مراكز الغرب ؟! .. وقس على ذلك : مدارس الفكر ، ومذاهب وأدوات الابداع .. فاذا كانت عندهم « وجودية » نجتهد ، فنجهد الحقيقة لنفتعل عندنا « وجودية » ؟! واذا كان عندهم « اغتراب » ..نفتعل عندنا « اغترابا » ؟! .. واذا كانت عندهم « بنيوية » .. فلابد أن تكون لنا « بنيوية » ؟! .. **وهكذا نصبح ، بالفعل ، راقصين على الأنغام الفكرية الأوربية ، دونما اعتبار للبديهيات التى تقول ان لكل أمة نمطا فى التطور ، ولكل حضارة عريقة وغنية وحية مزاجا فى التطور ، وأن الفكرية ـ [الأيديولوجية] ـ لابد أن تطبع بطابع الواقع الذى تعيشه الأمة وتتفاعل فيه .**

كان مطلوبا الغاء هذا المنطق البديهى ، لتصبح التبعية هدفا يسعى اليه المستضعفون فى الأرض ، من شعوب الأمم التى ابتليت بهيمنة الاستعمار الحديث ، وذلك كى تتأبد تبعية هذه الشعوب وتترسخ فى مختلف الميادين وشتى المجالات ! .

تيارات ثلاث

أمام هذه الهجمة « التغريبية » الاستعمارية ، ماذا حدث لحياتنا الفكرية ؟ وكيف استقبل مفكرونا ومثقفونا هذا « الوافد » التغريبي ؟ .. لقد تشكلت الصورة على النحو التالي :

كانت لدينا مؤسسات « فكرية - تعليمية - تهذيبية » تقليدية - من مثل : الأزهر .. والزيتونة .. والقرويين .. والطرق الصوفية .. الخ - وأمام هذه الهجمة التغريبية ، جفلت هذه المؤسسات وانزعجت ، فانكفأت على ذاتها ، وانغلقت على موروثها ، مخافة الزوال والذوبان ، الذي هو خطر من مخاطر « التغريب » ..

وللأسف الشديد ، فان « الذات » التي انكفأت عليها هذه المؤسسات التقليدية ، لم تكن هي الذاتيـة

***

الحقيقية والنقية والحية للحضارة العربيــة الاســلامية العقلانية المستنيرة ، التى تألقت فى عصر ازدهــار هذه الحضارة ، وانما كانت ذاتية فكرية عصورنا الوسطى ٠٠ عصور التراجع والجمود التى توقف فيها الابداع الذاتى والتفاعل الحضـــارى تحت تسلط المماليك وســلطان آل عثمان ففى ظل هذا التســلط ذبلت عقلانيـــة الفكر الاسلامى ، وذبلت استنارة هذا الفكر ، وتوقف الاجتهاد والخلق والابداع فى ظـــل هـــذه القــرون التى قاربت الســبعة (٦٤٨ ـ ١٣٤٢ هـ ١٢٥٠ ـ ١٩٢٤ م) ٠٠ وأخذنا نجتر « الحواشى » و « المتــون » ، التى نظمت نظما ركيكا ٠٠ وغرقنــا فى « الحكاكات » اللفظيــة والمحسنات الشكلية التى كونت المساحة الأعظم من الذاتية والفكرية لهذه المؤسسات !

لقد انكفأت هذه المؤسســات التقليدية على الذات خوفا من خطر التغريب ، ورفضت أن تستعين بتراثهــا الأصيل ، تراثها العقلانى لمواجهة هذا الخطر الوافد ٠٠ ونحن نقرأ فى أدبيــات تلك الفترة كيف أن الشـيخ محمــد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م) قد ناضل طويلا من أجل أن تدخل علوم مثل « الحساب » و « التاريخ » « والجغرافيا » فى مناهج الأزهر التعليمية ٠٠ ولقد سمى « الجغرافيــا » باسمها القديم (تقويم البلدان) كى يألفوها فيقبلوها ؟! ٠٠ ومع ذلك وقفوا ضده واعتبروا محاولاته هذه ثورة جامحة ، بل وحسبوها

« تغريبا » يجب رفضه •• ودارت بين الرجـــل وبين شيوخ الأزهر فى عصره مناقشات ، بل ومعارك ، مات الرجل بسببها حسرة وكمدا !؟

ونحن نقرأ ، فى أدبيـــات تلك الفترة ، كيف أن شـــيخا جليلا هو الشيخ عليش (١٢١٧ ـ ١٢٩٩ هـ ١٨٠٢ ـ ١٨٨٢ م) عندما سمع أن الشـيخ السنوسي (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م) يدعو الى فتح باب الاجتهاد ، حمل عصاه « الشهيرة ـ الغليظة » وأخذ يبحث عن الشيخ السنوسى ليؤدبه !؟ ••

ونعرف أن نفس الشيخ عليش هذا عندما علم أن كلمة « المعتزلة » قد ذكرت فى صحن الأزهر ، على لسان محمد عبده ، الذى كان لايزال طالبا بالأزهر ، يتتلمذ على جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) بمنزله فى « خان الخليلى » ، ويذهب الى صحن الأزهر فيعيد على نجباء « المجاورين » ما سمع من شروح الأفغانى على أمهات كتب « علم الكلام » الاســـلامى •• عندما علم الشيخ عليش أن كلمة « المعتزلة » قد ذكرت بصـــحن الأزهر ، هم أن يهشم عظام محمد عبده بعكازه الغليظ ! ••

كان هذا هو مستوى المؤسسات الفكرية التقليدية ، سواء أكانت تعليمية •• أم صوفية تحول لديها التصوف

من تصوف « عقلانى ـ فلسفى » أو « تهذيبى ـ شرعى » الى شعوذة وحيل واحتيال وبدع وخرافات ! ..

لقد انكفأت هذه المؤسسات على أسوأ ما فى ذاتيتنا الفكرية .. انكفأت على السلبى والجامد والمتخلف ، ورفضت ، فى جمود شديد ، ليس ما جاء من الغرب كوافد ، فقط ، وانما رفضت كذلك : جوهر الموروث العربى الاسلامى ، كما تألق قبل عصر الركاكة والجمود ؟! ..

ولقد كان تراث هذه المؤسسات الفكرية ، الذى كون فكريتها فى ذلك التاريخ ، لا يبعث على السرور أو الاحترام .. وكان مستحيلا على هذا التراث أن ينافس « الوافد » الغربى ، الذى يمثل ابداع عصر النهضة والثورة الصناعية .. فلم تكن تلك المؤسسات ، فى ذلك التاريخ ، تعرف حقيقة « موروث » هذه الأمة .. بل ان الذين بدأوا تحقيق النصوص القديمة : والذين بدأوا يكتبون الدراسات حول موروثنا الحضارى كانوا هم المستشرقون .. وكان موقف مؤسساتنا التقليدية من جوهر تراثنا كمثل موقف السفهاء الذين ورثوا كنوزا اغنية لكنهم لا يعرفون قيمتها ولا قدرها ! .. والذين يقرأون للمستشرق الروسى كراتشكو فسكى (١٨١٣ ـ ١٩٥١ م) ما كتبه عن (المخطوطات العربية) يصيبهم الأسى والألم .. انه يحكى كيف كان الشيخ المؤتمن على

مخطوطات مكتبة الأزهر ، جاهلا بقيمة هذه المخطوطات ، بل وعدوا ـ بسبب هذا الجهل ـ لتراث أمته .. فلقد احتال عليه كراتشكو فسكى : فحدثه عن ما فى مخطوطه احدى رسائل أبى العــلاء المعــرى [٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م] من زندقة والحاد ، فما كان من هــذا الأمين ـ أمين المكتبة ـ الا أن جمع « سلة » من مخطوطات المعرى وألح على كراتشكو فسكى أن يأخذها ، لتتطهر مكتبة الأزهر الشريف مما بهذه المخطوطات من زندقــه والحاد ؟! ..

كان هذا هو موقف هذه المؤسسات التقليدية من « الموروث » الحقيقى للأمة .. لم تكن تعرف حقيقة التراث فى منابعه الجوهرية والأصيلة ، لأنها كانت تعيش على زاد ضحل ومظلم ومتخلف ، عندما يوضع فى كفة ، ويوضع « وافد » الحضارة الغربية فى الكفة الأخرى ، تصــبح المعركة والمنافسة ـ وهكذا أصبحت ـ غير متكافئــة بين هذا « الوافد » وذلك « الموروث » والذى حــدث ، عند هذه المنافسة وهذه المقارنة أن الصفوة والنخبــة الحديثة ، والراغبة فى « الحداثة والتحديث » ، قد أدارت ظهرها لهذا « الموروث » ، **لأنها ـ وبكل الاخلاص للوطن ـ قد رأت أن السبيل الى القوة والتحضر والتطور كامن فى أن نصبح غربا كالغربيين فى كل شىء !** .. وتلك كانت بداية نشأة التيار الذى نسميه « تيــار التغريب » فى واقعنا الحضارى .

لقد نشأ هذا « التيار التغريبى » ، نشأة طبيعية ، بعد هذه الهجمة الاستعمارية الحديثة ، فتكونت الصفوة والنخبة الحديثة ، التى رأت أن ما يسمى ب « الموروث » ، أو « الصورة المملوكية ـ العثمانية للاسلام » لا تبعث على السرور ، وليست جديرة ولا مؤهلة لأن تقيل هذه الأمة من عثرتها ، وتنهض بها كى تواجه الأوربيين ٠٠ فقالت هذه النخبة : ان السبيل لمواجهة أوربا ، والطريق للقوة اللازمة لنا كى نتحرر من الاستعمار هو أن نستعير الحضارة الغربية ٠٠ فكان أن دعت هذه النخبة الى ما دعا اليه طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣ م] فى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] دعت الى أن نفكر كما يفكر الأوربيون ، ونحيا كما يحيون ٠٠ نصيب كما يصيبون ، بل ونخطىء كما يخطئون ؟! ٠٠ الى آخر مقولات تيار التغريب ٠

وبالطبع ، فاذا كان هناك عذر للذين تغربوا فى ذلك التاريخ ، فلقد كانت هناك فضيلة لتلك المؤسسات التقليدية لا يصح لنا أن ننكرها أو نغفل عن ابرازها ، وهى أن الحفاظ على الذاتية ، حتى فى صورتها المتخلفة ، كان أفضل من كارثة الذوبان النهائى فى الحضارة الغازية ، ومن تسليم القلاع جميعا وفتح كل المعاقل أمام غزوة « التغريب » ! ٠٠

وهنا لا بد وأن نتذكر ونذكر ما حدث فى الجزائر ،

خلال معركتها ضد الفرنسة والمسخ القومى الذى أراد به المستعمرون الفرنسيون أن تتحول الجزائر العربية المسلمة الى الامتداد الفرنسى اللاتينى لفرنسا الأم عبر البحـــر الأبيض المتوسط ، وعلى الشاطىء الافريقى ٠٠ ففى معركة الجزائر هذه ، دفاعا عن هويتها وموروثها الحضارى ضد الفرنسة ، وجدنا هذا الشعب البطل ، عندما أحدقت به المخاطر ، وأصبح ظهره للحائط ، ونزعت أسلحته ! ٠٠ وجدناه يقاوم ويحارب أحيانا حتى بالأسلحة الغريبة ٠٠ فالجزائر قد تسلحت وحاربت حتى « بالجهل والأمية » ؟!٠٠ من يتصور أن يصبح « الجهل » وتصبح « الأمية » أسلحة يدافع بها الشعب عن « ذاته » ضد الغزاة ؟! ٠٠ لقـد حدث هذا ٠٠ ذلك أن الذين تعلموا أو تثقفوا قد أصبحوا فرنسيين ، يندمجون وينتمون الى الوطن الأم (فرنسا) أو يسجنون فى سجن الفرنسية وثقافتها ! ٠٠ أما الذين ظلوا على جهلهم وأميتهم فهم الذين احتفظـــوا بهويتهم ، وبموروثهم الحضارى ، وبذاتيتهم المتميزة عن المســـخ المشوه الذى أراده الاستعمار ٠٠ ولقد استمر ذلك الى أن جاءت [جماعة العلماء المسلمين فى الجزائر] بقيادة شيخها عبد الحميـــد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠ م] فأبرزت الوجـه المشرق للتراث ، وصنعت جيل الرجـال الذين ولدت فى أحضـانهم ومن أحشائهم [جبهـــة التحرير الوطنى الجزائرية] ، التى رفعت السلاح وحررت الجزائر ، وأعادتها الى أحضـــان

العروبة والاسلام ، بعد احتلال قرن وثلث القرن ! .

اذا ، في ظل هـــذه الهجمـة « التغـريبية » كان الانكفاء على الذات ، رغم سلبياته ، من حيث عجزه عن تقديم البديل الحضارى القادر ، بجدارة ، على منافســة الحضارة الغربية وفكرية التغريب — وهذه هى السلبية الكبرى للجمود وأهله .. فهم بجمودهم قد عجزوا عن أن يقدموا البديل الصالح لنهضة الأمة أمام تحدى التغريب — ولكن هذا الجمود ، وهذا الانكفاء على الذات ، رغم تخلفه ، ورغم أنه لا يمثل جوهر العقلانية الاسلامية الحقيقية ، الا أنه **احتفظ بالموروث حتى يأتى بعد ذلك جيل يطور هذا الموروث ، ويتجاوز تخلفه ، وينفض عنه الغبار ، ويأتى — بالاجتهاد والتجديد — فيبعث ويبلور المشروع الحضارى الذى تواصل به الأمة مسيرتهـــا الحضـــارية المتميزة ..**

اذا ، نستطيع أن نقول : ان هذا الاحتكاك ، الذى بدأ مع الغزوة الأوربية الحديثة ، قد ولد فى واقعنا الفكرى تيارات ثلاثة :

— تيار الجمود .. الذى أشرنا اليه ..

— **وتيار التغريب .. الذى ظن واعتقد — مخلصا —** أن سبيل القوة هو أن نتغرب ، ونصبح ، فى الحضارة ، غربيين ..

ـ ثم التيار الوسطى .. التيار التجديدى ، الذى نسميه تيار « الجامعة الاسلامية » ، أو تيار « التجديد الدينى » ، الذى ارتاده جمال الدين الأفغانى ، والذى تكونت من حوله صفوة من المفكرين فى مصر وفى المشرق وفى المغرب ، قادت الكثير من الحركات الوطنية ، وقادت الكثير من حركات التجديد الفكرية والدينية فى وطن العروبة وعالم الاسلام ..

لقد رفض هذا التيار التجديدى الوقوف عند جمود الجامدين ، وبشر بضرورة تجاوز فكرية العصور الوسطى والمظلمة ، والعودة الى المنابع الجوهرية والنقية ..

وهـذه العودة الى المنابع هى التى تسمى بـ [السلفية] .. وهذا المصطلح قد أصبح ـ للأسف الشديد ـ واحدا من المصطلحات « سيئة السمعة ! » لدى كثير من المثقفين المستنيرين والتقدميين ، فى التيار العلمانى .. فهم يعتقدون أن « السلفية » مرادف للبدائية والتخلف والمحافظة والجمود .. الخ .. الخ .. ونحن نعتقد أن هذا الفهم الخاطىء والمغلوط يغفل عن حقيقة **أن « السلفية » ليست تيارا واحدا فى الفكر الاسلامى .. وعن حقيقة أن كل حركات التجديد والاصلاح فى اطار وطن العروبة وعالم الاسلام قد بدأت جميعا كحركات ودعوات « سلفية » .. ذلك أنه فى الدين ، فى الثوابت ، فى الأصول ، فى العقائد والشعائر ، فى الشئون**

المتعلقة بالغيب والآخرة ، لابد من العودة الى المنابع ..
وهذه العـــودة الى المنابع اذا اكتفت بالوقوف عنـــد « النصوص » ، ولم تنظر فيها بالعقل المستنير وبراهينه ، كانت « سلفية نصوصية » ، تورث أصحابها المحافظة والجمود ، فاذا ما نظر هؤلاء « السلفيون النصوصيون » فى « المتغيرات الدنيوية » بمنهجهم هــــذا ، السلفى النصوصى ، كانوا ولابد نموذجا للجمـــود الباعث على النفور ، بل والرثاء ! ..

أما اذا عنت « السلفية » : العودة للمنابع ، والنظر فيها بالعقل المستنير ، والاقتصـار فيهـــا على الثوابت والأصول والعقائد ، ثم المزاوجة بينها وبين « المستقبلية » فيما يتعلق « بالمتغيرات الدنيوية » ، كانت النهج الأمثــل « للتجديد » .. لأنها بالعودة الى المنابع تمثل الثـــورة التجديدية ضد البدع والخرافات والزوائد التى رانت على الثوابت والأصول ، وهى بذلك تسهم فى تحرير العقل من الأثقال عندما تخفف عنه أحمال عصور الانحطاط .. ثم انها ، فيما يتعلق بعمران الأرض وتطور المجتمـــع والمشروع الحضارى المنشود لانهاض الأمة ، وكل شئون الدنيا ، تبدع فى اطار الكليات الدينية وفق مصلحـــة مجموع الأمة ، التى هى فى فلسفة الاسلام التشريعية : نص من النصـــوص » ! .. ولذلك ، فلقد غلب الرأى القائل بأنه اذا تعارضت « المصلحة » مع « النص » وجب تقديم « المصلحة » على « النص » ، لأن « المصلحة » بنص

الحديث النبوى الشريف .. حديث : « لا ضرر ولا ضرار » تعتبر من « النصوص » .. فعندما نقدم « المصلحة » على « النص » ، فنحن نقدم « نصا » على « نص » آخر .. ولسنا نخرج بذلك عن التزام ثوابت الدين وأحكامه ! ..

هذا هو نهج مدرسة «التجديد الديني» الحديث ، فيما يتعلق بالثوابت ، فيما يتعلق بالطابع الحضارى الذى يميز هذه الأمة .. لقد قالوا : اننا نتميز عن الحضارة الغربية ، ولابد أن نحرص على هذا التمييز ، وهذا التميز ليس انغلاقا ولا عداء حضاريا .. اما فيما يتعلق بشئون الدنيا ، بالعلوم الطبيعية ، وبتطبيقات هذه العلوم الطبيعة ، وبكل العلوم التى تؤسس حقائقها على قوانين .. وأيضا بكل ما يدخل فى « عوامل القوة » اللازمة لتقوية الذاتية الحضارية المتميزة ، فلابد أن ننفتح فيها على مختلف الحضارات ، نستلهم منها ونتمثل ، ونتبادل الأخذ والعطاء ..

ولقد كانت مدرسة « التجديد الدينى » ، بهذا المنهج وهذه الدعوة ، الممثل الحقيقى لموقف حضارتنا العربية الاسلامية التاريخى فى هذا الموضوع .. فالعرب والمسلمون ، قديما ، قد انفتحوا على الحضارة اليونانية والفارسية والهندية ، لكنهم لم يتحولوا الى فرس أو يونان أو هنود ، وانما هم تمثلوا ما زاد سماتهم وخصوصياتهم تميزا ، وهم قد صنعوا ذلك من موقع صاحب الشخصية

المستقلة ، من موقع صاحب الجسد الصحيح والصحى ، فكانت لهم قدرة التمثيل والاستلهام ، دونما تبعية أو مسخ أو تشويه ..

لقد ترجموا فلسفة اليونان ، لكنهم لم يستوردوها ولم يتبنوا مقولاتها لتكون التعبير عن روحهم الحضارى وتصوراتهم للكون والوجود ، وانما قرأوا هذه المقولات الفلسفية اليونانية « قراءة اسلامية » حتى لقد أصبحت « فلسفة اسلامية » ؟! .. أما الذين قلدوا - من فلاسفتنا - مقولات الفلسفة اليونانية فلقد ظلوا مجرد هامش فى التراث الفكرى الاسلامى .. بل لقد كانت فلسفة هذه الأمة الحقيقية ، ومظهر عبقريتها وابداعها فى ميدان الفلسفة ، هو « علم الكلام الاسلامى » الذى جسد وسطية الحضارة الاسلامية عندما وازن ما بين « العقل » و « النقل » ، فتأسست فلسفته على قواعد « الدين » ! ..

اذا ، هذه الأمة لها طابع حضارى متميز ، والى هذا دعا تيار « التجديد الدينى » .. دعا الى أن نحتفظ لهذه الأمة بهذه الهوية الحضارية المتميزة ، ودعا الى أن ننفتح على علوم الحضارة الغربية ورائد هذا التيار : جمال الدين الأفغانى ، هو القائل « ان العلم أمه وأبوه : الدليل » .. فأينما يكون العلم مؤسسا على الدليل فليس له وطن ولا جنس ولا حدود ولا قوميات .. أما فى الانسانيات ،

آما فى الفلسفة والثقافة ، أما فيما تتمايز فيه الحضارات العريقة المتمايزة ، فلابد من الاحتفاظ بالهوية ..

هنا كانت عبقرية هـذا التيار الوسطى ، الذى رفض « جمود الجامدين » ، والذى رفض ، أيضا « تغريب المتغربين » .. ومن يقرأ ما كتبه الامام محمد عبده فى الصفحات التى تحدث منها عن « سيرته الذاتية » يجده يقول : « لقد نشأت كواحد من أبناء الطبقة المتوسطة فى مصر ، وتعلمت ما كان الناس يتعلمون ، ورأيت جمهور الأمة وقد استقطب الى تيارين : طلاب فنون الدنيا .. وطلاب علوم الدين » .. ثم ينتقـد الفريقين فلـم يكن الأولون سالكين طـريق التحضر الصحيح .. ولم يكن الآخرون سالكين طريق الدين القويم ! .. ثم يقول : ولقد اتخذت بينهما موقفا وسطا ، وثالثا ، يجمع ما فى الموقفين من حق صحيح ! ..

ومن يقرأ كلمات الأفغانى ويفقه سيرته ، فى كل المواقع التى ناضل فيها ، يجد أنه كان واعيا بموقعه الوسطى بين تيارى « الجمـود » و « التغـريب » .. وما كتبه عن المدارس « الحديثـة » التى أنشـأها محمد على باشا [١١٨٤ ـ ١٢٩٥ هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩ م] .. وتلك التى انشأتها الدولة العثمانية ، وما قام فى الشرق الاسلامى من « تحديث » على النمط الغربى ، يجد مصداق هذا الذى نقول .. لقد كتب الأفغانى مسفهاً

أحلام الذين ظنوا أن « الحداثة الغربية » صالحة ، بتعميم واطلاق ، لتكون « الحداثة العربية الاسلامية » فقـــال :
« .. لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم الى البلاد الغربيـة ليحملوا اليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » ، **وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى !**
.. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، **وقد مضت عليهم أزمان** غير قصيرة ؟! .. نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية ــ [القومية] ــ وما شاكلها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية ؟! ..

ومنهم آخرون قلبوا أوضـــاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، فنفـوا بذلك ثروة بلادهم الى غير بلادهم ! .. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ! .. لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء اليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم الســـبيل ، ويفتحون الأبواب ؛ ثم يثبتون أقدامهم ؟! .. »

تلك كلمات جمال الدين الأفغانى ، شاهدة على أن مشكلة الموقف من « الموروث » ومن « الوافد » قديمة قدم الهجمة التغريبية الاستعمارية التى دهمت بلادنا مع مطلع العصر الحديث .. وشاهدة كذلك ، على أن حركتنا الفكرية قد انقسمت ازاء هذه القضية الى تيارات ثلاث :

ـ **أهل الجمود** .. الذين انكفأوا على الذات ، التى لم تكن تمثل الوجه الحقيقى والمشرق للموروث . ورفضوا أى تفاعل أو انفتاح على الوافد الأوربى الجديد ..

ـ **والمتغربون** .. الذين دعاهم نفورهم من صوره الموروث ، كما تجسدت فى فكرية المؤسسات التقليدية ، الى نبذ هذا الموروث ، والسعى الى تبنى « النموذج الغربى فى التحديث » ..

ـ **وتيار التجديد الدينى** .. الذى رأى تجديد الدنيا عن طريق تجديد الدين ، ولم يقف بحياد بين « الموروث » و « الوافد » .. وانما انطلق من الالتزام بالأصول الجوهرية والنقية لموروث الأمة ، وسعى الى دعم استقلالها الحضارى بما فى الحضارة الغربية من عوامل القوة والتقدم التى أبدعها الأوربيون ! ..

الجديد فى حقبة السبعينات

لكننا نسأل ـ ذات السؤال الذى سأله ويسأله الكثيرون ـ :

ـ لماذا اشتد وعلا الصوت بالحديث عن « الوافد » و « الموروث » بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ م ..

ـ ولماذا انتشرت ظاهرة العودة الى « الموروث » ، والتحصن به فى حقبة السبعينات ؟! ..

ـ ولماذا اندفع الشعب ، فى مصر ، بتلقائية وعفوية ينشد نشيد : بلادى ، بلادى .. لك حبى وفؤداى ، فى جنازة البطل الشهيد الفريق عبد المنعم رياض ؟! ..

ـ ولماذا اندفعت الشبيبة ، وليس الكهول ، الى حيث الموسيقى العربية بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ م وخلال حقبة السبعينات ؟! ..

ـ ومتى انخرطت أفواج الشبيبة في تنظيمات « الموروث » ـ [الاسلام] ـ ، تتحصن به كما لم تتحصن بشيء من قبل ، حتى بأشكاله ورموزه ـ [اللحية .. والجلباب .. والسواك !] ـ ؟! ..

ـ بل ومتى أحس الناس بالحاجة الى قيام « لجان الدفاع عن الثقافة القومية » ؟! ..

متى حدث ذلك ؟ .. ولماذا هذا الانتشار لظاهرة التحصن « بالموروث » .. ؟ .. والجدل الذي يعلو صوته حول قضية « الوافد » و « الموروث » ؟! ..

لقد حدث ذلك في مواجهة هزيمة سنة ١٩٦٧ م .. التي أفرزت ، ضمن ما أفرزت ، تجريد المشاريع « التحديثية ـ العلمانية » ـ [الوافدة] ـ من مصداقيتها وجدارتها بانهاض من الأمة من كبوتها الحضارية .. ومن ثم فلقد انعطفت جماهير الأمة الى « الموروث » ، تتحصن به ، وتدعو الى سلوك سبيله لمواجهة التحديات المفروضة على الأمة ، واثقة من فعالياته اليوم ، لأن أسلافها قد انتصروا على تحديات الأمس بهذه الفعاليات !

وحدث ذلك في مواجهة الهجمة « التغريبية » التي جاءت بها حقبة السبعينات .. تلك الهجمة التي تجسدت في شيوع التحلل الاقتصادي ، الذي أسموه « انفتاحا » .. وشيوع « ثقافة » الشرائح الانفتاحية .. وسيادة قيم شارعي « الشواربي » و « الهرم » في أجهزة الاعلام؟!

.. وشيوع الأنماط الاستهلاكية التى تستنفر غـــرائز النهم والشره والشهوة فى الانسان ؟! ..

لقد زحفت هـــذه القيم والظـواهر التغريبية على واقعنا ، فى حقبـة السبعينات ، حتى كادت أن تطمس ضياء ذلك الشهاب الذى لمع فى أفقنا فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ م .. ولذلك لم يكن غريبا أن يختلج ضمير الأمة وينتفض جسدها باحثـا عن الحمـــاية فى ترسانته الحضارية التاريخية ، ومتحصـــــــنا بموروثه ، ومتترسا بالقلعة التى تترس بها أسلافه وهم يواجهـون أمثال هذه التحديات التى مرت بها هذه الأمة عبر تاريخها الطويل !

ذلك هو تفسير « الشيوع » لهذه الظـــاهرة ، فى السبعينات .. لقد كان شيوعا لظـــاهرة لم تولد فى السبعينات ؟! ..

قانون الاحتكاك الحضارى

ان سير أحداث القصة التى حدثت لأمتنا ، عندما احتكت هذا الاحتكاك العنيف بالحضارة الغربية ، هو أشبه ما يكون — فى اعتقادى — بـ « القانون » الذى يحكم ظاهرة « التماس الحضارى » و « اللقاء بين الحضارات » ! .. سواء أكان هذا « التماس » سلميا أم عنيفا ..

فنحن اذا راجعنا تاريخ الحضارة الغربية ، عندما كانت فى سبيلها الى النهضة ، نراها قد احتكت بالحضارة العربيـة الاسـلامية .. ونحن نعرف دور الأندلس ، والترجمة ، واشعاع الجامعات فى الأندلس .. الى آخر القصة المعروفة التى يحفظها الجميع ..

ماذا كان موقف أوربا من هذه الحضارة المغايرة ؟ .. ومن « الوافد » الذى تمثلة ؟! ما هو موقفها من حضارتنا ، عندما احتكت بها سلميا وعنيفا فى الأندلس ، وعنيفا فى

الحروب الصليبية ، وهى بسبيلها الى النهوض ؟ ..

لقد انقسمت الحياة الفكرية الأوربية ، يومئذ ، ازاء « الوافد » العربى الاسلامى الى تيارات ثلاث :

ـ وأول هذه التيارات ، يومئذ ، كان تيار «الكنيسة الكاثوليكية » .. الذى مثل « أهل المحافظـة والرجعية والتخلف والجمود » .. لقد رفضوا أى انفتاح على الحضارة العربية الاسلامية ، رفضوا الدين الاسلامى وعقلانيته . والقيم والأخلاق ، والفكر والثقافة جميعا .. لقد أبصروا ما يحمله لهم الدين الاسلامى من « توحيد » بلغ أرقى صوره وأنقاها ، حتى ليرفض أى « حلول » أو « تجسيد » أو تعددية فى ذات المعبود سبحانه !! .. الخ .. الخ .. ولذلك رفضوه ، ورفضوا الفلسفة الاسلامية ، بما فيها من عقلانية .. رفضوا فكرية الحضارة الاسلامية بكاملهـا ، دينا وعلوما وحضارة ، فلقد كانت علوم هذه الحضارة حاملة فى ثناياها الروح الايمانية للاسلام !

ـ وكان هناك تيار يسـميه البعض بـ « الراشديين اللاتين » ، الذين ساروا مع ابن رشد ، وحاولوا التبشير بفكره .. وكان فى هـذا التيار قطاع متحمس لتبنى الحضارة العربية الاسلامية ، يتسلح بـ « وافدها » هذا فى حربه ضد الكنيسة وتيار الجمود ! .. ولقد ذهب هذا القطاع فى حماسه للوافد العربى الاسلامى الى الحد الذى جعله يتمنى أن تنطبع به أوربا انطباعا كاملا وتاما ..

فتمنوا أن يسود الاسلام وحضارته أوربا ، وكتب أناتول فرانس » [١٨٤٤ ـ ١٩٢٤ م] تعبيرا عن نزوع هذا التيار يقول : « ياليت كان الاسلام قد بسط فكره على أوربا من الأندلس حتى تركيا ، وياليت مآذن المساجد قد ارتفعت بدلا من الكنائس ، وياليتنا سمعنا ترتيل القرآن بدلا من الأناجيل .. اذا لأفلتت أوربا من عصـــورها المظلمة والقرون المتخلفة التى عاشتها » ؟! ..

على هذا النحو فكر وقدر فريق من مفكرى أوربا ، كان يرى أن الموقف الأمثل هو تبنى هذا « الوافد » العربى الاسلامى ، ليكون البديل الذى ينهض بأوربا ويخرجها من عصورها المظلمة ! ..

ـ أما التيار الأساسى ، الذى صنع عصر النهضة الأوربية ، وبنى دعائمه ، فلقد وقف ازاء الحضارة العربية الاسلامية موقفا متميزا عن موقف « الرفض الكامل » الذى وقفته الكنيسة وأنصارها وعن موقف « التبنى الكامل » الذى وقفه فريق من « الرشديين اللاتين » ..

لقد سعى هـذا التيار الى حضارتنا فوعاها ، ثم استلهم وتمثل منها : «المنهج التجريبى » ، و « العلوم الطبيعية » .. أما قسمة العقلانية الاسلامية ، فلقد ميز هذا التيار « عقلنا » عن « نقلنا » ، فرفض ما فى عقلانيتنا من « نقل » و « وحى اسلامى » ، وأخذ ، فقط ، الانحياز الى « براهين العقل » .. فكأنه قـد أخـذ عنا عقلانيته اليونانية ، وترك ما تميزت به عقلانية الاسلام ! ..

لقد كان المنهج ، عند اليونان ، هو : « القياس » ، فأصبح في حضارتنا هو : « الاستقراء •• والتجريب » •• وهذا هو الذى تمثله الأوربيون من حضارتنا •• وتمثلوا معه علوم هذه الحضارة ، من طب وحساب وجبر وبصريات •• الخ •• الخ •• لكنهم تحفظوا ازاء القيم والاخلاقيات والروح الحضارية للحضارة العربية الاسلامية أخذوا علوم العرب والمسلمين ، التى نسميها « العلوم الطبيعية » ، وتطبيقات هذه العلوم ، ثم طوروها فى عصر النهضة •• ولكنهم ، فيما يتعلق بالانسانيات تحفظوا •• لقد رفضوا «التوحيد» ، وهو جوهر فكرية ـ [ايديولوجية] ـ هذه الأمة ، ومعيار نظرتها وتصورها لهذا الكون •• ورفضوا قيم حضارتنا •• ورفضوا «الوسطية الاسلامية» ، التي هي الموقف المعتدل والمتوازن الذى ألفت به حضارتنا بين ما هو « دين » وبين ما هو « دنيا » •• وبين « الدنيا » و « الآخرة » •• وبين « الجسد » و « الروح » •• وبين « الحكمة » و « الشريعة » الخ • وهذه « الوسطية » هى المزاج الحضارى والروح الحضارية التى تميزت بها حضارتنا العربية الاسلامية •

لقد أخذو الجانب العلمى ، المؤسس على الحقائق العلمية ، وطوروه •• أما فيما يتعلق بالعلوم الانسانية ، وبالقيم ، وبالأخلاقيات ، والطابع الحضارى ، والذى يشبه « البصمة » و « المزاج الحضارى » و « الروح الحضارية » فلقد رفضوها •• رفضها هذا التيار ، الذى أسس وبنى وصنع وقامت على أكتافه فكرية عصر النهضة فى أوروبا •

هذه هي التيارات الأوربية الثلاث ، التي واجهت « الوافد » العربي الاسلامي ابان سعي أوربا الى النهضة .. والتي تقابل تياراتنا الثلاث في موقفها من فكرية « التغريب » .. تبلورت في الواقع الفكري الأوربي .. كما تبلورت في واقعنا الفكري ، ازاء ظاهرة الاحتكاك الحضاري بين الحضارتين ، لتشهد على عموم هذا القانون ! .

« فأهل الجمود » .. يرفضون أي انفتاح على أي حضارة من حضارات ، وينكفئون على الذات ، بصرف النظر عن صلاح وصلاحية هذه الذات ! ..

وقوم - هم « المتغربون » - يرون أن الصلاح والأصلح هو أن نتحول الى الجانب « المتحضر » في كل شيء ، ونصبح مثله في كل المجالات والميادين ..

والتيار الذي نسميه - في حالتنا - تيار « التجديد الديني » ، قد أبصر رواده أن لأمتهم مشروعا حضاريا متميزا ، يرتفع على قاعدتين ، ويطير بجناحين : بالمميزات الحضارية الخاصة وبالعلوم والنظم ، التي تمثل « مصادر القوة » في الحضارة الغربية ..

لقد قال جمال الدين الأفغاني - وهو رائد هذا التيار - : « ان العلم ابن الدليل » ! .. وقال ، أيضا : « ليس على الشرقي أن يبدأ من حيث انتهى الأوربيون ، وانما لا بد من الاحتفاظ ببعض من الأصول التي كان عليها أسلافنا الشرقيون » ... فهنا موقف التمييز بين العلوم

التى لا وطن لها ، ولا جنس ، ولا حدود تحد صلاحها وصلاحيتها ·· وبين الانسانيات والاجتماعيات والفلسفات والفكر الذى يحدد للانسان تصوراته للكون ، وكل ما يتميز بتميز الواقع الحضارى ··

وهذا التمايز الحضارى — كما أشرت — هو غير الانغلاق أو العداء الحضارى ··

وعلى سبيل المثال ، فنحن لو نظرنا الى « خريطة » هذا الكوكب الذى نعيش عليه ، من الزاوية الحضارية ·· هل يستطيع انسان أن ينكر أن الصين حضارة متميزة ؟·· وأن الهند حضارة متميزة ؟ ·· وأن الغرب حضارة متميزة ؟ ·· وأيضا ، أن العرب والمسلمين حضارة متميزة ؟ ·· وأن التواصل الحضارى يجب أن يبرأ من « التبعية » و « الذوبان » ·· وأن يبرأ كذلك من « العداء » الحضارى و « الخصومة » الحضارية ··

انظروا الى ماوتسى تونج [١٨٩٣ — ١٩٧٦ م] ·· ألا يقولون انه قد طوع الماركسية — وهى « وافد » — للواقع الصينى — « الموروث » ؟! ·· فأصبحت شيئا جديدا ، عندما يقارنه خصومه بالأصل الأوربى ، نراهم يتهمون « ماو » بالهرطقة والمراجعة والردة والانحراف !·· لكننا نقول : **هنا ، كانت الصين ، بموروثها الفكرى ، بوتقة حضارية متميزة ، وفى هذه البوتقة كان على « الوافد » أن يطوع « للموروث » فيتشكل بشكل جديد ··**

وهذا المثل الصينى يذكرنا بما أشرت اليه من **أن أسلافنا العرب المسلمين ، عندما ترجموا الفلسفة اليونانية ، فانهم « قرأوها قراءة اسلامية »** .. لقد تمثلوها من موقف المستقل وموقع الراشد الصحيح فانطبعت بروحهم الحضارى المتميز ومزاجهم الحضارى الخاص .. والذين يفقهون ـ ولا أقول : يقرؤن : ـ شروح ابن رشد على أعمال أرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م] ـ وهو الشارح الأكبر لأرسطو ـ يرون فى اضافات ابن رشد وابداعه ما يمثل ابن رشد المسلم ، والمتكلم ، والقاضى ، والفقيه .. هنا كانت الاضافة الممثلة لروحنا الحضارى حتى فى الشروح الرشدية على أعمال أرسطو .. أما اذا أردنا ابن رشد فى صورته الحقيقية المتكاملة ، فلا بد وأن نبحث عن ذلك فى الأعمال التى أبدعها كمتكلم ومشرع وفقيه ..

هذا هو القانون الذى حكم احتكاكنا العنيف بفكرية « التغريب » ، عندما بدأت الغزوة الأوربية الحديثة .. وهو ذات القانون الذى حكم احتكاك الغرب بحضارتنا ابان نهضته .. ومن قبل ذلك حكم احتكاك العرب المسلمين . أواخر العصر الأموى وفى العصر العباسى ، بالحضارات التى أخذو منها وترجموا عنها .. حضارات اليونان والفرس والهنود .

ونحن عندما نتأمل فى تجربة مصر تحت قيادة محمد على باشا ، نجد ما يفيدنا فى هذا الموضوع .. ان البعض منا عندما يفتح كتاب [البعثات العلمية فى عهد محمد

على وعباس وسعيد] ٠٠ وهو الكتاب الذى وضعه الأمير عمر طوسون [١٢٨٩ ـ ١٣٦٣ هـ ١٨٧٢ ـ ١٩٤٤ م] ٠٠
إن هذا البعض يردد كلاما شائعا ـ ولكنه خاطئ ـ يقول : ان من سلبيات محمد على أنه قد بعث المبعوثين الذين درسوا **العلوم والفنون العملية** من طب وزراعة وهندسة وعسكرية وقناطر وجسور واستحكامات وطباعة ونسج وغزل ٠٠ الخ ٠٠٠ الخ ٠٠٠ الخ ٠٠ ولم يرسل مبعوثا واحدا ليدرس انسانيات الحضارة الأوربية وفلسفاتها ٠٠٠ وحتى الذين برعوا فى ابداع الفكر الانسانى ، من هؤلاء المبعوثين ، فان براعتهم هذه لم تكن وليدة ما درسوه فى أوربا بهذا الميدان ٠٠ فعلى مبارك [١٢٣٩ ـ ١٣١١ هـ ١٨٢٣ ـ ١٨٩٣ م] الذى برع فى التأريخ للمجتمع من خلال [الخطط] كانت دراسته فى أوربا عن الاستحكامات العسكرية ! ٠٠ والطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م] قد تخصص هناك فى ترجمة علوم الصنعة والفنون العملية ! ٠٠ فكانت ريادته لهذا الميدان عودة واعادة لريادة طلائع المترجمين العرب فى العصر الأموى ، عندما بدأوا بترجمة علوم الصنعة منذ ثمانينات القرن الأول تحت قيادة خالد بن يزيد [٩٠ هـ ٧٠٨م] ٠٠

ونحن لا نرى فى صنيع محمد على باشا هذا سلبية ، كما يرى الآخرون ٠٠ فهو لم يقتصر ـ فى البعثات الى أوربا ـ على علوم الصناعة وأصولها العلمية ـ العلوم الطبيعية ـ لأنه كان متخلفا ومصابا بالثنائية والازدواجية ،

كما يفهم البعض خطأ ، ويحكم ظلما ، **وانما صنع ذلك لأنه كان واعيا « بالضرورى » الذى هو فى حاجة اليه ، وعارفا بماهية « الوافد » الذى نحتاجه ، وماهية «الموروث» الذى لا بد من الاحتفاظ بـه .. لقد تعلم الطبـاعة من أوربا ، وأقام المطبعة التى طبعت علوم أوربا العملية ، كما طبعت ذخائر « الموروث » ، فى أول مشروع قومى لاحياء التراث فى عصرنا الحديث ! ..**

والطهطاوى .. الذى يجمع الجميع على أنه صاحب « المذهب الانسانى » ، وعلى أنه هو الذى أوقد سراج التنوير .. الخ .. الخ .. نقرأ فى أعماله حديثا طيبا عن الأوربيين ، باعتبارهم أهل التمدن والتقدم والصناعات ، الذين يجب علينا أن نأخذ عنهم هذه العلوم وتطبيقاتها بلا عقد ولا حدود .. ولكننا نتعلم منه ، أيضا ، أن مراده وهدفه من هذا الانفتاح الذى دعا اليه هو علوم « التمدن المدنى » و « العلوم الحكمية العلمية » .. وهو يكرر هذا ويلح عليه .. فاذا جاء الى « الفلسفة الغربية » وتصور الأوربيين للكون ، وفلسفتهم فى التشريع ، تحفظ على ذلك ، وحدثنا عن « أن لهم فى الفلسفة حشوات ضلالية تخالف كل الكتب السماوية » ! .. وهنا ، أيضا ، نجد البعض يعيب ذلك على الطهطاوى ، لأنه يتمنى أن لو تبنى الرجل كل ما فى أوربا ، حتى الفلسفة واللاهوت ! .. ويرى هذا البعض فى موقف الطهطاوى هذا « ثنائية » .. وازدواجية .. وعجزا عن تبنى الحضارة الغربية ككل » ! ..

وأنا أقول : ان هذه هى العبقرية عند الطهطاوى ، وهذا هو الموقف الأصيل ، الذى تجسدت فيه « الأصـالة والمعاصرة على النحو النافع والمطلوب ٠٠ لقد عرف الطهطاوى ما الذى نحتاجه من أوربا ، كى تقوى شخصيتنا الحضارية المتميزة ، فبحث عن « الوافد » الذى يقوى به « موروثنا » المتميز ، وليس عن « الوافد » الذى يطمس هذه الذاتية الحضارية المتميزة ! ٠٠

ونموذج محمد على باشا ٠٠ ونموذج رفاعة الطهطاوى من النماذج الحية التى ترينا فعل هذا القانون الذى أبصره هؤلاء العباقرة المصلحون والمجددون ٠٠ وأبصروا حكمه لظـاهرة الاحتكاك بين الحضـارات ذات العراقة والغنى والاستمرار ٠٠ **ماذا نحتاج ؟ ٠٠ وما هى العلـوم التى لا وطن لهـا ؟ ٠٠ والتى لا خطر على ذاتيتنا المتميزة من وفودها ؟ ٠٠ والتى لا بد لنا وأن نسعى اليها سعيا جادا وحثيثا ؟؟ ٠٠ وما هى الذاتية الحضارية التى لا بد من تجديدها ، والنهوض بها ، وتطويرها ، مع المحافظة على الأصول والسمات والقسمات التى تضمن بقـاء تمايزها المتسق مع الشخصية القومية للأمة ؟؟ ٠٠ لأنها ، بالنسبة للأمة ، كالبصمة بالنسبة للفرد ٠٠ فكما أن لكل انسـان « بصمة » وهو يصافح الكل دون أن يفقد تميزه ببصمته هذه عن الآخرين ، كذلك هناك الذاتية الحضارية المتميزة ، والتى يجب أن نبحث عنها فى « الموروث » ٠٠ ونحن عندما نسعى لامتلاك العلوم وحقائقها ، وللاستفادة من تطبيقات**

هذه العلوم ، والاستفادة من تجارب الأمم والحضارات الأخرى ، فانما نسعى لامتلاك « مصادر القوة » ، التى تقوى بها ذاتيتنا الحضارية المتميزة ، دون أن نخلطها بتلك المصادر التى تمسخ شخصيتنا أو تشوه ذاتيتنا ، أو تنسخها من الأساس ! ..

ان الانسان الصحيح - [المستقل] - يزداد صحة بتمثل المناسب من الغذاء .. بينما هذا الغذاء قد يودى بحياة المريض ؟! .. والانسان ينمو ويتطور ، فتتغير فيه أشياء ، ولكن هناك ثوابت تجعله هو هو رغم النمو والتطور الذى يعتريه .. وكذلك مثل الحضارة ، فيها الثوابت والأصول والقسمات التى تمثل هويتها ، وفيها المتغيرات التى تفسح الهوامش للتفاعل والأخذ والعطاء مع الحضارات الأخرى .. وعلينا أن نبصر ذلك جيدا .. وأن نميز بينه جيدا ، حتى نتجنب مخاطر « التبعية والذوبان » .. ومخاطر « الجمود والانغلاق » ! .

أى موروث ؟ .. وأى وافد ؟

اذا ، فالقضية ليست قضية : «موروث» و «وافد» ، على الاطلاق والتعميم .. وانما هى قضية : ما هو الصالح والصحى من « الموروث » ، ومن « الوافد » ؟ ..

بل اننا سنجد فى كل « موروث » حضارى « وافدا » ! .. ذلك أن بعض « الوافد » ، لصلاحه وملائمته للروح الحضارية ، يتحول ، بعد تمثله ، الى « موروث » ! .. فالوافد الجديد يمكن أن يكون نافعا وصالحا ، ويمكن أن يكون ضارا .. اذا ، فالموقف ليس : هل أنا مع « الموروث » بشكل مطلق ؟ أو مع « الوافد » ، بشكل مطلق ؟ .. وانما لا بد لنا أن نبحث عن « الهوية » الحضارية ؟ فيم تتمثل ؟ وأين الثوابت ؟ وأين المتغيرات ، التى فى هامشها مساحة ومكان للوافد ، الممثل لمدد القوة والصحة للهوية والثوابت الحضارية الموروثة ؟ ..

وعلى سبيل المثال ·· فأنا عندما أجد فى الموروث العربى الاسلامى « قيم التواكل والزهد » ، الذى قد يصل الى درجة ادارة الظهر للدنيا وللعمران ·· فاننى أعرف أن هذا التواكل وزهد الدراويش ، هو ، فى الأصـل ، « وافد » فارسى ، دخل الى الحضارة العربيـة الاسـلامية ووفد عليها من الموروث الفارسى القديم ، وكان وسيظل ضارا ·· لقد أصبح « موروثا » ، ومع ذلك فأنا ضده ، عندما كان وافدا ، وضده بعد ما أصبح جزءا من بنية هذه الحضارة ، فهو « موروث » ، لكنه موروث ضار ، كما كان وافدا ضارا ! ··

و « قيم عصر الحريم » ، فيما يتعلق بوضع المرأة ، والنظرة اليها ·· لقد بدأت « وافدا » تركيـا مملوكيا دخيلا على حضارتنا العربية الاسلامية ·· ومن يقرأ فتاوى الامام محمد عبده عن رأى الاسلام فى تعدد الزوجات ، يجد حديثه عن هذه الحقيقة ·· ولقد تحولت هذه القيم الى « موروث » ، الى الحد الذى جعل الكثيرين يتصورون أن قيم عصر الحريم هذه هى المعايير الاسلامية التى نظر بها الاسلام الى المرأة المسلمة ! ·· ونسى هؤلاء أن صورة المرأة المسلمة ، فى صدر الاسـلام ، كانت : المرأة المقاتلة ، والمناضلة ، والعاملة والعالمة ، والتى تدافع عن حقوقها بالمظاهرات ؟! والتى تذهب الى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وتقول له : ان الرجال قد استأثروا بك دوننا ، وأنت مبعوث للجميع ، فاجعل لنا يوما تحدثنا فيه وتعلمنا

أمور الدين ! •• ينسى هؤلاء الناس الصورة الاسلامية للنساء المسلمات اللاتى حملن السلاح ودافعن عن الرسول فى غزوة أحد ، عندما فر كثير من الرجال •• الخ ••• الخ •• فصورة المرأة المسلمة المناضلة قد انزوت وكادت أن تتلاشى فى صفحات موروثنا ، وأصبحت قيم عصر الحريم ، وصورة المرأة التى خلقت لتكون لعبة الرجال وموطن شهواتهم ودمية تتزين بها البيوت ، هى موروثنا الذى أضفى عليه البعض قداسة الدين ، محاولين تخليده ليصبح جزءا من الهوية الحضارية لأمتنا •

« والطبقية المستغلة » •• انها ، هى الأخرى ، « وافد » فارسى وبيزنطى ، غريب عن الموروث العربى الأصيل ، الذى تميز بالعدل والمساواه وقيم الاشتراك العمومى بين أفراد القبيلة ثم الأمة فى أمور المعاش ! ••

والذين يتأملون مغزى موقف الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب من أبهة الملك وامتيازات الوالى التى كان عليها معاوية بن أبى سفيان عندما كان واليا لعمر على الشام الذين يتأملون موقف عمر هذا يدركون كيف كان معاوية ــ بالأبهة •• والحجابة •• والطبقية ــ يمثل شيئا وافدا وغريبا عن الفكرية الاسلامية البسيطة فى شبه الجزيرة العربية •• ولقد علل معاوية ادخال هذا « الوافد » فى حياته وأسلوب حكمه لولايته ، بضرورة ذلك لنفاذ هيبة الوالى الى قلوب الناس •• فهذه الأبهة والطبقية من مواريث

البيزنطيين ، التى غدت موروث ولاية الشام ! ٠٠ ولقد كان جواب عمر على تبرير معاوية هذا :

ـ لا آمرك ، ولا أنهاك ؟! ٠٠

فلقد كان بازاء واقع مختلف عن واقع شبه الجزيرة العربية البسيط ٠٠ وأمام وافد غريب عن البساطة والجماعية التى سادت شبه الجزيرة فى ذلك التاريخ ٠٠

وهذا « الوافد » الفارسى والبيزنطى قد أصبح « موروثا » ٠٠ والآن ، نجد أصحاب « الخيار الطبقى » ، الذين يحبذون الطبقية المستغلة يضفون عليه قداسة الموروث ، بل وقداسة الدين ! فيتحدثون عن مشروعية « الطبقية المستغلة » وضرورتها ليتخذ بعض الناس البعض الآخر سخريا !! ٠٠ الخ ٠٠ وهم ، بذلك ، انما يضفون قداسة الاسلام الحنيف ، دين العدل والمساواة والجماعية والتكافل الاجتماعى يضفون قداسة هذا الدين الحنيف على هذا « الوافد » الطبقى الاستغلالى ، الذى جاء من حضارات وثنية مشركة ومجتمعات طبقية لم تعرف بساطة البقعة التى ظهر فيها الاسلام ! ٠٠

اذا ، فواجبنا أن لا نتعصب للموروث لمجرد أنه موروث ٠٠٠ وأن لا نرفض الوافد لمجرد أنه وافد ٠٠ وانما لا بد أن نبحث عن مكان الموروث من هوية الأمة الحضارية ، ومن الثوابت والأصول التى تمثل السمات التى تتميز بها وتمتاز عن الأمم الأخرى ٠٠ ودور هذا

الموروث فى المحافظة على التواصل الحضارى فى مسيرة الأمة التاريخية ومكانه من ترسانة الأسلحة اللازمة للأمة فى صراعها ضد تحديات العصر الذى نعيش فيه ..

وأن نبحث ، كذلك ، عن ماهية « الوافد » .. وهل هو عامل قوة ضرورى لأمتنا ؟ .. وعن مدى اتساقه مع روحنا الحضارية التى تميز أمتنا ؟ .. فان كانت نهضتنا تقتضيه ، ومشروعنا الحضارى يستدعيه ، فلابد وأن نسعى اليه سعيا جادا وحثيثا .. فهو أولى بنا ، ونحن أولى به من « موروث » قد أصبح قيدا يحول بيننا وبين الانطلاق !

ماهى الهوية ؟

وإذا كان المعيار فى الموقف من « الموروث » ومن « الوافد » هو « هوية » هذه الأمة ، والثوابت الحضارية التى تتميز بها ، والروح الحضارية المكونة لمزاج حضارتنا .. فلا بد . وأن نحدد ما هى هذه « الهوية » ؟ ..

هل الهوية هى كل التراث ؟؟ ..

نحن نجيب بالنفى .. ذلك لأن تراث الأمة هو كل الموروث ، هو كل ما ورثناه ، سواء منه ما كان من « علوم الشرع » ، أم من « العلوم العقلية » ، أم فى « العلوم التجريبية » .. كل هذا هو تراث الأمة .. وهذا التراث ملىء بالمواقف والاتجاهات المختلفة ، بل والمتناقضة والمتعارضة ، لأنه ثمرة لابداع تيارات فكرية ومدارس فكرية متمايزة بل ومتناقضة عاشت وأبدعت فى ذلك الواقع القديم .. وهذا الواقع ، الذى تبلور فيه هذا التراث ـ

متطور أبدا ومتغير حتما ، بحكم قانون التطور ، الذى هو سنة من سنن الله ، سبحانه ، فى الكون ·· وهذا التطور لابد وأن يستدعى تجاوز قطاعات من هذا التراث ، وهى التى نسميها « المتغيرات » ·· ولذلك ، فليست عتاقة الكتب واصفرار أوراقها وغرابة حروف مخطوطاتها ولا قدم مقولاتها ، ليست هذه بالمؤهل ولا بالحجة التى تضفى على الموروث القداسة أو المصداقية ·· ومن ثم فنحن اليوم لسنا ملزمين بالتزام معارك القدماء ، بل ولا بمناهجهم ، ناهيك عن مقولاتهم وما أبدعوا من نظريات ·· والقول بذلك الالزام عبث ·· والذين يفكرون على هذا النحو انما يعبثون ! ··

ذلك لأن القضية ليست الحفاظ على كل الموروث ، حتى ولو تجاوزه التطور ·· فليس كل الموروث هو « **الهوية الحضارية التى تميز الأمة حضاريا** » ··

ونحن عندما نبحث عن تعريف « الهوية » ، فسنجد مصطلحها ليس غريبا عن موروثنا القديم ·· فهو واحد من المصطلحات التى ضمتها معاجمنا القديمة ·· سنجد الجرجانى [٧٤٠ - ٨١٦ هـ ١٣٤٠ - ١٤١٣ م] يعرف الهوية فى كتابه [التعريفات] - وهو قاموس للمصطلحات - يعرفها بأنها « هى الحقيقة المطلقة ، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة فى الغيب المطلق » ! ·· أى أنها تعنى : الذاتية ، الخاصية ، البصمة التى تميز الظاهرة عن الظواهر التى تشبهها ··

أما « مجمع اللغة العربية » ، فهو يعرف « الهوية » ، حديثا ، فيقول : انها « حقيقة الشيء ، الشخص ، المطلقة : المشتملة على صفاته الجوهرية ، وليست أى صفات ، والتى تميزه عن غيره » ..

هذا هو تعريف « الهوية » ، قديما وحديثا ، ولذلك ، فاننا اذا قلنا ـ بصدد الحديث عن الشخصية القومية والشخصية الحضارية :

ـ ماذا تعنى الهوية بالنسبة للحضارة ؟ ..

كانت الاجابة :

ـ انها الصفات الجوهرية التى تميزها عن غيرها من الشخصيات القومية والحضارية ، انها « البصمة » الممثلة للقدر الثابت والجوهرى والمشترك من السمات العامة التى تميز شخصا ما عن غيره أو قومية عن غيرها أو حضارة عن غيرها من الحضارات ، انها هى النواة ، وهى الجوهر ..

واذا كنا نقول : ان موروثنا فيه الثوابت وفيه المتغيرات ، فهذا يعنى أن فيه ما هو « هوية » ، وفيه ما هو « متغيرات » ، التغير فيها والتطور وارد على نحو أكبر .. وهنا لا بد وأن نضرب على ذلك بعض الأمثلة :

فالعروبة .. بالنسبة لهذه الأمة ، هوية ، لأنه على مر العصور ، ومنذ أن اندمجت هذه الجماعة البشرية ، بالتعريب ، فى هذه الأمة الجديدة ، تعرب البشر ، وأصبح

ولاؤهم للعروبة ، بالمعني الحضارى · وليس بالمعنى العرقى والعنصرى ·· ومن يقرأ ما كتبه العلماء العرب ، الذين انحدروا من أصلاب وأصول عرقية غير عربية ، يعرف كيف كان ولاؤهم للعروبة وانتماؤهم لها كاملا وخالصا ·· ومن هؤلاء العلماء ، على سبيل المثال : ابن جنى [٣٩٢ هـ ١٠٠٢ م] الفارسى الأصل ، والذى كتب كتابه [الخصائص] فجاء أعظم ما كتب فى فلسفة العربية ·· يكتب ابن جنى فيحدثنا كيف أنه لقي الكثير من علماء العربية ذوى الأصول النسبية غير العربية ، والمنحدرين منهم من أصل فارسى على وجه الخصوص ، فسألهم عن مقام العربية بالنسبة للفارسية ؟ فوجد اجماعهم على رقى العربية وارتقائها ، حتى لقد أنكروا مجرد المقارنة والقياس ؟! ··

فهؤلاء العلماء قد تعربوا ، وأصبحوا يفكرون ويقرأون ويكتبون بالعربية ، وخلص ولاؤهم وانتماؤهم للعروبة ، رغم انحدارهم من أصلاب عرقية غير عربية ·

والمواريث التى سبقت الفتح العربى والاسلامى ، هى الأخرى قد تعربت ـ كما تعرب البشر ـ ودخلت ـ أثناء « عصر التدوين » ـ فى نسيج الحضارة الجديدة ، تلك التى تبلورت كثمرة لاسهام الجميع ، جميع امم الشرق ، وكل مواريث هذه الأمم على امتداد عمق حضاراتها الضارب فى أعماق التاريخ ·· حتى أننى لو قلت : ان نصيب غير العرب الأقحاح فى هذه الحضارة العربية الاسلامية أكبر من نصيب عرب شبه الجزيرة العربية ، لما كنت

مبالغا ! .. ذلك **أن الفتح العربى لم يمارس مع هذه المواريث الفكرية والحضارية سياسة المسخ أو النسخ أو التشويه .. وانما أحياها ، وعربها ، وصبغها بصبغة الاسلام ، وأدخلها فى نسيج الحضارة الجديدة .**

وعندما حضر عمرو بن العاص الى مصر ، فاتحا لها ، ومحررا اياها من القهر البيزنطى ، وجد أن الذين يمثلون فكرية مصر القومية وأصالتها ـ وهم الأقباط «اليعاقبة» ـ وجدهم مضطهدين ، قد فروا الى المغارات والأديرة في أعماق الصحارى .. ووجد « الملكانيين » ـ الممثلين لمذهب البيزنطيين الغزاة ـ والممثلين « للوافد » الفكرى الرومانى ـ وجدهم قد انفردوا واستبدوا بمؤسسات الفكر فى مصر ، وسيطروا على الكنائس .. فماذا صنع عمرو بن العاص « للموروث » المقهور والمضطهد ؟ وماذا صنع ب « الوافد » المستبد والمسيطر ؟! .. لقد اقتلع الملكانيين ـ [الوافد] ـ من كنائس مصر ومؤسساتها اللاهوتية والفكرية ، وأعاد كل ذلك الى قوم مصر : اليعاقبة الأقباط ! فعادت فكرية مصر القبطية اليعقوبية الى السيادة من جديد .. ثم تعربت هذه الفكرية وموروثها ودخل الناس فى دين الله أفواجا .. لقد أسلمت الأغلبية الساحقة من السكان ، ومن لم يسلم تعرب ، وأسهم وأبدع مع من أسلم فى هذا البناء الحضارى الجديد .. ووجدنا « الاسلام الدين » « الاسلام العقيدة » قد وقف عند حدود الذين آمنوا به ، وأسلموا

وجهم لله وفق عقائده ، التي بشر بها محمد ، صلى الله عليه وسلم منذ فجر البعثة •• أما الحضارة العربية الاسلامية، التى تبلورت فى عصر التدوين ، فلقد جاءت ثمرة لابداع كل الذين تعربوا ، وكل الذين طبعوا بهـذه الهـوية الحضارية الجـديدة ، على اختـلاف شرائع الأديـان والمعتقدات ••

وهـذه العروبة ، التى اتسعت دائرتهـا ، وزاد عمقهـا قد عاشت وصـمدت لكل التحديات فالممـاليك والعثمانيون ، قد حكمونا قرونا زادت عن القرون التى حكم فيها العرب الذين سبقوهم ! •• وفى ظـل حكمهم ظهرت دعوى التفرقة بين « العروبة » وبين « الاسلام » ، عندمـا زعمت السلطـة أن « العروبة » تتناقض مع « الاسلام » •• بدأ هذا الزعم فى ظل الدولة المملوكية ، ورأيناه يتصاعد فى ظل الدولة العثمانية الى حد اضطهاد العروبة والعربية ، حتى لقد سـعى الأتراك الى تتريك الأمة العربية ؟! ••

ثم رأينـا ، فى الجزائر ، الجهـود الاستعمارية المحمومة لفرنسة الشعب الجزائرى ، عندما حاولت فرنسا تحويل الجـزائر الى امتـداد لاتينى فرنسى عبر البحر المتوسط ! ••

ورأينا الجهود التغريبية التى بذلت ـ فى قـوة واستمرارية وانتظام وشمول ـ حربا على العربية وتراثها ودينها ، لقطع الروابط التى تجمـع هـذا الثالوث ـ

العربية ‥ والتراث ‥ والدين ـ فمرة يريدون كتابتها بالحروف اللاتينية ، ومرة يريدون استبدال العامية بها ‥ وفى كل الأحوال هم يشككون فى أصالة تراثها ، ويعزلون الاسلام عن عرش الحياة المدنية ‥ ولما لم يبلغوا ، على هذه الجبهات ، كل الذى أرادوا ، حاربوا العربية بالتجاهل لها وبالجهل بها ‥ حتى وجدنا خطباء ومتحدثين فى أجهزة الاعلام المسموعة والمرئية ، ومعهم « كتبة » ، فى وسائل الاعلام المقروءة تشع منهم وتتقاطر علينا الأخطاء الفاحشة باللغة القومية ‥ بل لقد وصلت الأخطاء الفاحشة الى منبر خطبة الجمعة وخطبائها ؟! ‥ وعمت الشعر العربى ، وغزت القرآن الكريم والحديث الشريف ، على ألسنة كثير من الخطباء ؟! ‥

ومع كل ذلك ، فلقد وجدنا هوية « العروبة » تكمن ، صامدة أمام كل تلك التحديات ‥ لقد كمنت فى الجزائر ، كمون النواة ، والجوهر ، والحقيقة المطلقة ، حتى حان الحين فأعادت الجزائر مرة أخرى الى أحضان العروبة والاسلام ‥

وكل تيارات التغريب التى رأيناها ، قد اعتراها ويعتريها الوهن ، ولم تلن لهوية « العروبة » قناة ! ‥ حتى الذين بدأوا حياتهم الفكرية يبشرون بالتغريب ‥ ماذا صنعوا ؟ وماذا صنعت بهم الحياة ؟ ‥

ان بعض الناس يتحدث ، بسطحية وتبسيط

للأمور ، مثلا عن « حقبة كتابة الإسلاميات » فى حياة أعلام ومفكرين من مثل عباس محمود العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٤ هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤ م] والدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣ م] والدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م] •• يتحدث هذا البعض عن هذا التحول فيرجعه الى : أنهم قد طعنوا فى السن ، وقاربوا الموت ، فأصابتهم نكسة التراجع عن « الفتوة والتألق والثورية ! » ، وبدأت مرحلة « الدروشة » ، التى اقترنت بتصفية بقايا ثورية ثورة سنة ١٩١٩ م ، التى أوقدت زند هؤلاء الاعلام ! •• وأنهم ـ بنظر هذا البعض ـ قد انخرطوا ، فى مرحلة الهزيمة ، يكتبون ما كتبوا فى الاسلاميات ؟! ••

وهذا الكلام ـ السطحى والخبيث ـ يذكرنا بما قاله هذا البعض فى تفسير رفض رفاعة الطهطاوى لفلسفة أوربا ، بأنه نقص وعيب وسلبية وازدواج فى الموقف والشخصية •• ونحن نقول : **ان أصحاب هذه التفسيرات لم يبصروا موطن الهزيمة فى مسيرة هؤلاء الأعلام الذين بدأوا متغربين ، ثم عادوا الى اطار العروبة والاسلام •• كانت هناك هزيمة حقا ، ولكنها كانت هزيمة النموذج الحضارى الغربى ، الذى انكشف أمره ، ووضحت سلبياته ، وظهر طابعه الاستعلائى والعدوانى ، فأيقن القوم أن هيمنة هذا النموذج الحضارى الغربى على عقل**

الأمة وواقعها لن يثمر « التحضر » و « القوة » و « التقدم »، التي كانوا يؤملون من ورائه ، وانمـا سيثمر تشويه الموروث والخصوصية ، والقضاء على فعالية هذا الموروث ، لتصبح الأمة راسفة فى أغلال التبعية للمركز الأوربى والغربى المسيطر فى كل المجالات ومختلف الميادين ••

لقد انهزم النموذج الغربى فى عقول هؤلاء المتغربين وفى وجدانهم ، وخاب أملهم فيه ، فعادوا أدراجهم الى أصولهم وموروثهم وقواعدهم الأصـلية والأولى •• ولذلك فاننـا ننظر الى هذا التحول ـ الذى تمثل فى حقبة كتابة العقاد وطه حسـين وهيكل للاسلاميات ـ ننظر اليه كظـاهرة صحية ، وكانتصــار « للموروث » فى صراعه ضـد « وافد التغريب » ! •• وفى هذا الضوء نحن نفهم مغزى أحداث فكرية حفلت بها حياة هؤلاء المفكرين والكتاب ••

ـ فطه حسين ، كان يعيد طبـع كتبه •• لكن ، لماذا لم يعد طبع كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] ؟! ••

ان السبب فى ذلك ، هو تجسيد هذا الكتاب لطه حسين « المتغرب » ، الذى يقلل من قيمة وفعالية انتمائنا العربى ، ويضعنا فى اطار « العقل اللاتينى » ، عبـر ما سماه حضارة البحر المتوسط ••

ـ ولطفى السيد [١٢٨٩ ـ ١٣٨٣ هـ ١٨٧٢ ـ ١٩٦٣ م] الذى بدأ متغربا ، ينكـر العروبة القوميـة والسياسة ، ويستنكر « الجامعة الاسلامية » ، ويتحدث

عنهما حديثه عن الاستعمار ! ·· لطفى السيد هـذا ، قد عاد ، فى أواخر حيـاته ، يتحدث عن العروبة حديثا جديدا ، ينقض به ما كتبه عنها فى مرحلة « التغرب » ·· ومثل ذلك صنع طه حسين بالنسبة لموقفه من العروبة والقومية العربية ·· لقد عادوا ، بشجاعة المفكر العظيم ، الى « الموروث » ، وانهزم فيهم « وافد التغريب » الى حد كبير ! ·· وكانت هذه العودة الحميدة هى الحقبة التى طبعت بأسلمة الحياة الفكرية لهؤلاء الأعلام ، الذين بدأوا متغربين ·· فهى ، اذا ظاهرة صحية ، عاد بها هـــؤلاء الأعلام الى قواعدهم مرة أخرى ··

وهذه الظاهرة الصحية ، التى حدثت فى صفوف جيل من « المتغربين ـ الليبراليين » ، هى التى نبصر الآن نماذج لها وعلامات عليها فى صفوف جيل من « المتغربين ـ اليساريين » ·· فعلينا أن نحذر الخطـــأ والسطحية فى التفسير ·· انهــــا واحــــدة من علامات وظواهر النضج الفكرى ، وواحدة من علامات وظواهر الانتصـــار الذى يحققه « الموروث العربى الاسلامى » ضد « وافد التغريب ليبيراليا كان هذا الوافد أم شموليا ؟! » ··

والتدين ·· ـ كمثال آخر على الهوية ـ ·· نقول : ان أمتنا هذه أمة متدينة ·· وهذا الكلام ـ الذى يتردد كثيرا ـ ليس عبثا ·· فالتدين قسمة من قسمات الهوية التى تتميز بها أمتنا العربية الاسلاميـــة ·· والتدين ،

هنا ، لا يعنى الشعائر وحدها ، كما أنه لا يعنى « الدروشة » •• وانما هو موقف من ثوابت كثيرة •• منها :

ـ الأسرة •• التى غدت ـ وكانت وستظل ـ فى حضارتنا « حرما مصونا ! » ، قد اكتسب معنى « الحرام » فى الدين ! ••

صحيح أن « التغريب » و « التحديث على النمط الغربى » قد وجه الكثير من السهام الى هذا البناء الأسرى المتميز ، وأصاب هذا « الحرم المصون » بما يبعث أحيانا على الأسى •• فتفككت روابط كانت محكمة العرى ، وضمرت الأسرة التى كانت ممتدة •• الخ •• الخ •• لكننا نلحظ مغزى النظرة السائدة ، والتى نضع هذه الظواهر المرضية فى اطار « الأمراض » التى لابد من السعى الى البرء منها ، وفى اطار « الشذوذ » الذى يجب ان يخلى مكانه لتسود « القاعدة » •• قاعدة الأسرة ، باعتبارها « الحرم المصون والمصان ! » •

ولقد أدرك أعداء هذه الأمة ما للأسرة من مكان ومكانة فى هوية الأمة وثوابتها •• فخافوا ، وهم يخلعون قانونها الاسلامى من على عرش المؤسسة القضائية ، من تعميم ذلك فى محيط القانون الذى يحكم شئون الأسرة ، فتركوا « قوانين الأحوال الشخصية » على حالها •• ليس من باب التسامح ، ولا حبا فى الشريعة ، ولا سعيا

لدعم بناء الأسرة المسلمة .. وانما مخافة الثورة التى توقعوها ان هم مسوا هوية الأمة الحضارية فى منطقة حساسة ، بلغت فى الحساسية الى مرتبة « الحرم المصون » ! ..

— والقيم .. والأخلاقيات .. هى الأخرى من ثوابت الهوية التى انطبعت بالطابع القدسى للدين والتدين .. والا ، فهل فينا كثيرون يقيسون التعامل « بالمنفعة المادية » على نحو ما هو حادث فى الحضارة الغربية ؟ ..

قد يكون « التغريب » و « التحديث » على النمط الغربى » قد أحدث فى واقعنا شيئا من ذلك ، يبرز فى المدن ، ويتوارى فى الريف .. لكن الجميع يحجبون عنه الشرعية والمشروعية ، وينظرون اليه نظرتهم الى الشذوذ عن القاعدة .. والى المرض الذى يرجون منه الشفاء ! .. والى النتوء الخارج عن النسق العام والاتساق المقبول ..

بل ان قسمة التدين لتبلغ فى حضارتنا درجة تستدعى الانتباه ، وتستحق الدراسة الخاصة والمتخصصة . فلقد تعدى أثر التدين اطار القيم والأخلاقيات والعلاقات الاجتماعية . ليصل الى ميدان العلوم الطبيعية وتطبيقاتها . فعرفت حضارتنا ما نسميه بـ «الروح المؤمنة» التى سرت ، لا فى «علوم الشرع» وحدها — فهذا طبيعى ووارد ومألوف وانما فى « العلوم العقلية » أيضا ، التى اتسقت ، فى المنطلق والنتيجة والغاية ، مع « علوم الشرع » .. بل لقد شاعت

هذه « الروح المؤمنة » فى العلوم الطبيعية ، التى نمت كعبادة لله ، يقيمها العلماء سعيا لاكتشاف أسرار الله فى كونه ، وسننه فى ملكوته ، فاذا ما طبقوها نراهم قد ربطوا الوسائل بالغايات مستهدفين من تطبيقاتها تلك السعادة الدنيوية لخلق الله ، تلك التى بدونها لن يستطيع الخلق عبادة الحق بعمران الكون الذى شاء لهم أن يعمروه ؟! ..

ونحن نسأل : ماذا يعنى اسلام مفكر فيلسوف مثل رجاء جارودى ؟! .. وأهم من هذا ، ماذا يعنى تعليله لاهتدائه للاسلام بأنه قد وجد فيه **الدين الذى جعل الحضارة الاسلامية ترتبط فيها العلوم والمعارف بالحكمة والغاية ؟!** .. ذلك ملحظ يستحق التأمل العميق ! ..

ان الذين يدرسون تراثنا العلمى يلحظون شيوع « الروح المؤمنة » فى ثنايا هذا التراث ، وتخللها لحقائقه ونظرياته .. فحتى « قوانين » هذه العلوم غير غريبة ولا بعيدة عن « الايمان » ! ..

فاذا قرأنا — من تراثنا — كتبا فى [الأحجار والجيولوجيا] ، نجد المؤلف يبدأ هذه الكتب ب [بسم الله الرحمن الرحيم] و ب [الحمد لله] .. فاذا فرغ من مبحث قال : [والله أعلم] ! .

وابن حزم الأندلسى [٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ٩٩٤ — ١٠٦٤ م] يؤلف فى الحب كتابه البديع [طوق الحمامة] ،

فيبدأ الكتابة فى الحب بداية الفقيه الذى يكتب فى الالهيات ! ..

وابن سينا [٣٧٠ – ٤٢٨ هـ ٩٨٠ – ١٠٣٧ م] – وهو الفيلسوف العالمى – يقرأ كتاب أرسطو [ما بعد الطبيعة] فيستعصى عليه فهمه .. ثم يعاود المحاولة .. حتى يقع فى يده كتاب للفارابى [٢٦٠ – ٣٣٩ هـ ٨٧٤ – ٩٥٠ م] يحل له المغاليق ، ويعينه على فهم [ما بعد الطبيعة] .. فماذا وجدناه قد صنع هذا العقل المتفلسف ؟ .. لقد وضع كتبه وأوراقه جانبا ، وأخذ شيئا من نقوده ، وغادر منزله باحثا عن الفقراء والمساكين ، يتصدق عليهم ، شكرا لله الذى أعانه على فهم [ما بعد الطبيعة] لأرسطو ؟! ..

ان هذه « المواقف – الأمثلة » – بالغة الدلالة على هذا الذى نقول : ان حضارتنا العربية الاسلامية هى حضارة مؤمنة ، يصل تأثير التدين فيها الى ما هو أبعد من الشعائر والقيم والأخلاقيات والمعاملات ، فيسرى بروحه المؤمنة فى العلوم ، حتى ما كان منها خاصا بالطبيعة وفى تطبيقات هذه العلوم ! ..

هذا عن حضارتنا العربية الاسلامية ..

أما الذين يقرأون مؤلفات الحضارة الغربية فى العلوم الطبيعية فانهم لن يجدوا « للروح المؤمنة » أثرا .. بل انهم سيجدون النقيض على نحو أكيد ! .. فهذه

المؤلفات قد لا تتحدث عن الالحاد ، ولا تجادل فى انكار **وجود خالق صانع وقادر فى هذا الكون ، ولا تدعو الى الهرطقة والزندقة ، ولكنها تصحب القارىء من البداية الى النهاية فتقف بعقله عند حدود المحسوس ، والأسباب والمسببات فى اطار هذا المحسوس ، وفى خلال ذلك كله فانها لا تشعر القارىء بوجود قوة خالقة وراء هذا المحسوس ، بل ولا بالحاجة الى وجود هذه القوة ! .. ان هذه المؤلفات ، حتى اذا لم تنكر صراحة وجود هذه القوة الخالقة ، فانها ترسب فى الذهن الانسانى تصورا للكون لا يحتاج الانسان فى ادراكه الى أكثر من الأسباب والمسببات المادية التى يجدها ويلمسها أمام حواسه ..** وهذا النهج الغربى .. وهذه الروح الغربية تكون العقلية غير المؤمنة ولذلك فاننا حين نتحدث عن الروح المادية والالحادية للحضارة الغربية ، لا نقف بمقاصدنا فقط عند « الطابع النفعى » فى القيم والأخلاقيات ، وانما نقصد الى ما أشرنا اليه من سريان « الروح الملحدة » فى التراث العلمى للحضارة الغربية ، الأمر الذى ميزها ويميزها عن حضارتنا العربية الاسلامية ، التى تميزت « بروحها المؤمنة » تسرى فى كل العلوم والفنون وسائر الميادين والمجالات ..

فنحن عندما نقول : ان لحضارتنا تميزا بـ « الروح المؤمنة » ، التى هى أثر من آثار « التدين » فى هويتنا الحضارية .. عندما نقول ذلك لا « نتدروش » .. وانما

نقصد الى ما قصد اليه جمال الدين الأفغانى عندما تحدث عن « التدين » فشبهه ب « الجبلة » و « الطبع » الذى طبع به انسان حضارتنا ، العربى المسلم ، فهو حتى لو مرق من دينه ، وتزندق وألحد ، فان أثر التدين وتأثيره يظل مطبوعا فيه ، مثله فى ذلك كمثل أثر الجرح فى الجسم بعد الشفاء والاندمال ! •• فهـذا الانسان لا يستطيع الخروج من جلده ـ كما يقولون ! ••

ـ **والوسطية** •• انها ، هى الأخرى ، فى حضارتنا « هوية » ، وواحدة من القسمات الثوابت •• والوسطية هنا لا تعنى المعنى السوقى الذى شاع بين العامة من المثقفين والسياسيين لهذا المصطلح المظلوم ! •• لا تعنى انعدام الوضوح ، وافتقاد الموقف المحدد ، واللعب عـلى مختلف الحبال ، وامساك العصا من منتصفها •• الخ •• **الخ •• وانما تعنى « الوسطية » ، فى المفهوم الاسلامى : « الأمة الوسط » و « الموقف الوسط » الذى هو : عـدل بين ظلمين ، وحق بين باطلين ، واعتدال بين تطرفين •• ليس بالمعنى الأرسطى ، الذى يجعل الفضيلة وسـطا يتوسط رذيلتين ، متصورا وجود مسافة عن يمين الفضيلة وعن يسارها ، متساوية ، تفصل بينها وبينهما •• وانما بمعنى اشـتمال الموقف الوسـط على محاسن القطبين النقيضين التى يمكن جمعها والتأليف بينها •• « فالعقلانية الاسلامية » موقف وسط ، ليس بمعنى التوسـط بين « العقل » وبين « النقل » ، وانمـا بمعنى التأليف بين**

براهين « العقل » و « النقـــل » جميعـــا ٠٠ و « المادية الاسلامية » موقف وسط ، ليس بمعنى التوســـط بين المادة وبين الروح ، وانما بمعنى الجمع بين محاســـنهما والضرورى منهما لخلق الانسان السوى و « الشـخصية الاسلامية » شخصية وسط ، لا بمعنى انعـدام انتمائها ، وانما بمعنى جمعها بين فضائل « الجسد » و « الروح » وفضائل « الدنيا » و « الآخرة » ، وفضائل « الدين » و « الدنيا » ، وفضائل « الفردية » و « الجماعية » ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

ذلك هو معنى « الوسطية » ، التى هى روح الحضارة العربية الاسلامية ومزاجها ٠٠ وأنا أحيانا اتساءل : لماذا نجد فى التراث الفلسفى للحضارة الغربيــة تيارا ماديا ملحدا منذ اليونان وحتى العصر الحديث ٠٠ وهذا التيار قديم وعريق ٠ وسابق على ماركس (١٨١٧ ـ ١٨٨٣ م) وعلى الماركسية ، كما يعرف الجميع ؟؟ ٠ ولماذا لا نجد فى التراث الفلسفى لحضارتنا العربية الاسلامية هذا التيار المادى الملحد ؟؟ ٠٠ وهل المصادفة هى التى صنعت ذلك ، ووقفت خلفه ؟! ٠٠ لا أعتقد ٠٠ ولا أظن ! ٠٠ وانما مرجع هذا الافتراق وذلك التمايز الى امتياز حضارتنا « بروح الوسطية » وقسمتها ٠٠ هذه الوسطية التى وازنت ما بين « العقل » و « النقل » ، فأصبح لنا « عقلانية اسلامية » تميزت عن « العقلانية اليونانية » التى لم تعرف « النقل ـ الوحى » فأثمر هذا التوازن منظومة فكرية متميزة ٠٠

وانه لأمر يستحق النظر والتأمل ، بل ويستوجبهما، وهو أننا نجد أغلب الفلاسفة والمتكلمين والمفكرين المسلمين قد قالوا بـ « قدم العالم » ، وهم ، فى ذات الوقت ، مؤمنون بوجود خالق لهذا العالم القديم ٠٠ لقد جمعوا ، بالمنهج الوسطى التأليفى - وليس التلفيقى - بين القول بـ « قدم العالم » وبين الايمان بالخالق لهذا العالم ٠٠ على حين وجدنا أن ذات القضية هي التى قسمت الفكر فى الحضارة الغربية ، تاريخيا ، الى تيارين : مادي ، ومثالى ٠٠ فالذين قالوا بقدم المادة أنكروا وجود الخالق لأنهم رأوهما ضدين لا يجتمعان ولا يأتلفان ٠٠ أما الذين قالوا بوجود الخالق ، فلقد أنكروا قدم المادة ، لأن الأمرين عندهم ، أيضا ، ضدان لا يجتمعان ولا يأتلفان ٠٠ ولقد تكون من الأولين « التيار المادى » ٠ ومن الأخيرين : « التيار المثالى » على النحو المألوف لدارس الفلسفة الغربية ٠٠

أما فى حضارتنا التى تميزت بالوسطية ٠٠ حضارة الأمة الوسط ، فلقد تآخت الحقيقتان ووجدنا (المعتزلة) - مثلا - عندما يقولون بالخلق من « العدم » ، ينبهون على أن هذا « العدم » : « شيء » ! ٠٠ ووجدنا ابن رشد - مثلا - يقول انه قبل « الوجود بالفعل » يكون « الوجود بالقوة » ٠٠ وأن « الخلق » هو « الخلق المستمر » ، الذى يتحول به « الوجود بالقوة » الى « وجود بالفعل » ٠٠ و « الوجود بالفعل » الى « وجود بالقوة » ، وهكذا باستمرار ، تحول دائم لا ينتهى فى هذا الوجود ٠٠ كما

يقول : ان الله قديم ، ولذلك فلابد وأن يكـــون فعله ـ العالم ـ قديما أيضا ؟! • وهو ذات المعنى الذى يعبر عنه الامام محمد عبده بقوله : « ان المادة أزلية ، كما ان الله أزلى » ؟! ••

هكذا وجدنا ، فى الحضارة الغربية ، تيــارا مـاديا ملحدا ، متبلورا ومستمرا عبر تاريخها الطويل •• وآخر مثاليا •• ولم نجد لذلك مثالا ولا شـــبيهها فى تاريخنا الفكرى والفلسفى •• لماذا ؟؟ ••

ان مرد ذلك هو امتياز حضارتنا بالوســطية ، التى هى مزاج حضارى مختلف ، أثمر فى حضارتنا ما نسميه بـ « تدين الفلسفة •• وتفلسف الدين » ؟! ••

فالمعتزلة ، وهم رواد وصناع «علم الكلام الاسلامى» ـ الذى هو فلسفة امتنا ـ والذين ميلوا فرسان العقلانية الاسلامية ، هم الذين أسسوا فلسفتنا على قواعد الدين وأصوله ، بينما تناقضت الفلسفة مع الدين فى الحضــارة الغربية ، وقامت ولا تزال قائمة بينهما الحروب ! ••

وهؤلاء المعتزلة ، عندما قال خصومهم ، من « أهــل الحديث النصوصيين » : ان الادلة ثلاثة ، وهى : الكتاب •• والسنة •• والاجماع •• قالوا هم : بل انها أربعة ، هى ـ على هذا الترتيب ـ : العقــل •• والكتــاب ••

والسنة .. والاجماع .. وعللوا ذلك بالحاجة الى العقل ، كقاض حاكم ، فى التمييز بين المحكم والمتشابه ، والمطلق والمقيد والخاص والعام .. الخ .. الخ من آيات الكتاب .. لأن هذا الكتاب ـ الذىهو معجزة الاسلاموالذى هو«النقل» قد جاء « معجزة عقلية » ، عرضت على العقل ، وجعلته مناط التكليف ، والقاضى الحاكم فيها ، ولم تقصـــد الى « ادهاش » هذا العقل واخراجه عن الأطر التى أحكمتها وتحكمها البراهين ..

فنحن ، هنا ، أمام « توليفة » جديدة ، وهى شىء مختلف تماما عن « التلفيق » . أمام منظومة فكرية ومزاج حضارى قد مايز مابين حضارتنا وبين الحضارة الغربية على وجه التحديد ! .. بل مايز بينهـــا وبين كثير مــن الحضارات .

نحن نعرف أن المسيحية الأولى قد بلغت فى «الصوفية المسالمة وفى « السلام الصوفى » الى حد الدعوة الى ادارة الظهر للدنيا .. ومن ضربك على خدك الأيمن ، فأدر له خـــدك الايسر ! .. ومـن غصـــبك ثوبك ، فاعطـــه القميص ! .. الخ .. الخ ..

وأن الحضارة الهندية قد بلغت فى تصوفها حـد الدعوة لافناء الجسد ، بل لقد تعبدت بتعذيبه ! ..

أما الحضارة الغربية فان روحهـــا المادية النفعية واضحة المعالم ، سائدة فيها السيادة المطلقة ، وفى كل

الميادين ، حتى لقد طوعت المسيحية المتصوفة فغدت فيها طقوسا وشعائر لا علاقة لها بالصورة المثالية التى بدأت عليها ..

لكن حضارتنا ، كما وأضحنا ، قد تميزت بالمزاج الوسطى المعتدل ، الذى وازن ويوازن بين مـا حســبه الآخرون ـ فى الحضارات الأخرى ـ متناقضات لا سبيل الى الجمع بينها ، فضلا عن التأليف والتوفيق ..

هكذا ، أصبح باستطاعتنا أن نقول : ان ســمات من مثل : « العروبة » ، و « التدين » و « الوسطية » ، انما تمثل . فى حضارتنا : « هوية » .. وأن علينا ان نتخذها معيارا لصلاح أو عدم صلاح .. لصحة أو عدم صـــحة أى « وافد » جـــديد .. بل وأى « موروث » قديم ؟! ..

التشكيك فى ثبات الهوية

لكن البعض قد يقول : ان ما تسميه ثوابت ، «هوية» قد لا يستعصى على التطور والتغيير ٠٠ ولقد ضرب لى بعض الاصدقاء مثلا ليدلل به على ذلك فقال : ان البصمة يمكن ان تزال بقليل من الحامض ؟! ٠٠

وأنا أقول : ان الأمر ليس بهذه البساطة ٠٠ ولذلك فأنا أدعو الى تأمل هذه الحقائق ، التى هى فى رأيى ظواهر حضارية تستحق النظر العميق والتفكير الذى يستخلص منها الدلالات :

ـ أن كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٩ ق٠م) لا يزال حيا فى الصين حتى الآن ؟! ٠٠

ـ والاسلام حى فى « بخارى » كما هو حى فى الأزهر الشريف ؟! ٠٠

ـ والأرثوزكسية حية فى روسيا الماركسية كما هي حية فى مقر بابوية الكرازة المرقسية ؟! ••

حدث ذلك ، ولا يزال يحدث رغم القرون الطوال ، ورغم عوامل التطور والتغيير الداخلية منها والخارجية •• الأمر الذى يجعلنا نعتقد أننا بازاء « ثوابت » و « هوية » ولسنا بازاء « متغيرات » ! ••

ـ وتركيا ـ والاسلام هويتها ـ لقد جـاء كمـال أتوتورك (١٢٩٨ ـ ١٣٥٧ هـ ١٨٨١ ـ ١٩٣٨ م) ـ بناء على عوامل داخلية وخارجية ـ فنحى الاسـلام جانبا ، وفرض العلمانية على تركيا ، ومر على ذلك قرابة القرن •• والآن نسأل : ما هى تركيا التى تعلمنت ؟! •• انهـا شريحة محدودة جدا •• وأنتم ترون الآن البعث الاسلامى الذى يهز تركيا هزا عنيفا •• وما الانقلاب الفاشستى الذى قاده جنرالات حلف الأطلنطى بقيادة « افرين » • منذ سنوات ، الا نموذج لمحاولات الغـرب الحيلولة بين الاسلام وبين السيادة فى هذه البلاد من جديد ! ••

ـ والخديوى اسماعيل (١٢٤٥ ـ ١٣١٢ هـ ١٨٣٠ ـ ١٨٩٥ م) فى مصر •• لقد قيل عن مصر : انها قد غدت « قطعة من أوربا » فى عصره •• ثم جاء الاستعمار فأسرع الخطا على ذات الطريق •• ومر ما يزيد عن القرن عـلى سيادة هذا النهج فى مصر •• والآن نسأل : أية مصر تلك التى أصبحت قطعة من أوربا ؟! •• وأية مصر تلك التى

استعصت على أن تصـــــبح قطعة من أوربا ؟! ٠٠ ان الشريحة التى تغربت هى التى خيل اليها ، وهما ، أنهـا قد أصبحت جزءا من أوربا ، أما جسد الامة الحقيقى فانه لم ولن يصبح قطعة من أوربا ٠٠ وعندما يجد الجد وتحدق بالأمة الخطوب ، ينطلق وجـدان الأمة ، يعبر لسـانها ، بنشيد « بلادى ٠ ٠بلادى » ! ٠٠ ويصبح « الاسلام » هو الحصن الذى تتحصن به ! ٠٠ وتبرز « العروبة » كالسند الشامخ الذى تستند اليه ، رغم كل محاولات المسخ والنسخ والتشويه ٠٠ بل وينسلخ يوما بعد يوم من الشريحة المغربة أفضل أبنائها ، يعودون الى قواعد هويتهم الحضـــارية ، ليبراليين كانوا فى تغـربهم أم شموليين ! ٠٠

اذا ، فان ما نسميه بـ « الهوية » ، هو الجوهر ، والنواة ٠ والبصمة ٠ والمزاج ٠ والروح فى هذه الحضارة وليس من السهل اقتلاعها ٠٠ انها من الثوابت ، وليست من المتغيرات وقد يشتد الضغط والتأثير المقاوم والمعاكس لها ، فيجعلها كامنة تتحين فرصة الهزة أو الزلزال لتبرز وتسود من جديد ! ٠٠

والذين قرأوا تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ، يعلمون كيف سارت سياسة الفرنسة شوطا كبيرا عـلى درب النجاح ، حتى خيل لأنصارها ان الجزائر قد غدت، بالفعل الامتداد اللاتينى الفرنسى لفرنسا ــ (الأم) ــ عبر

البحر المتوسط .. ويعلمون كيف كتب واحد من هؤلاء المتغربين ، الذين اندمجوا فى فرنسا الأم ، يسخر من فكرة وجـــود جزائر عربية مسلمة متميزة عن « فرنسا الأم » فعنون مقاله ـ فى حقبة الثلاثينات من هذا القرن ـ بعبارة : (من يدلنى على وطن اسمه الجزائر) ؟! ..

وهؤلاء الذين قرأوا تاريخ الجزائر ، يعلمون جيدا ان هذه الكلمات التى عبرت عن الشريحـــة التى تغربت وتفرنست ، لم تمثل الا « الوهم ـ السطحى » الذى علا ، لحين ، جوهر الهوية الثابت فلقد كانت العروبة ، وكان الاسلام هوية الجزائر ، كمنت لحين . ثم انطلقت فأزاحت الوهم ، وحققت للجزائر النصر الذى تعرفون .. ولم يفلح معها كل ما صنعه الاستعمار على امتداد اكثر من قرن من « تطوير وتغيير ! » .

التفاعل الحضارى

وغنى عن البيان ـ كما أشرنا الى ذلك مرارا ـ ان « التمايز » الحضـــارى هـــو موقف مختلف تماما عن « الانغلاق » أو « العداء » الحضارى ·· فرفض الانفتاح على الحضارات الأخرى هو موقف ضار ، فضلا عن أنه غير ممكن في ظروف ثورة أجهزة الاتصال والتواصـــل التى تزداد فعالياتها فى العصر الذى نعيش فيــــه ·· **ان « التمايز » الحضارى انما ينطلق من حقيقة موضوعية تؤكد وجود سمات وخصائص وقســـمات تمايز ما بين الحضارات الغنية والعريقة ، تعبيرا عن تمايز الشخصيات القومية والمكونات التاريخية لأمم تلك الحضارات ·· ولقد أثبت سير التاريخ الانسانى ، ولا يزال يثبت ويؤكد أن هذا التمايز لم يمنع من التقاء هذه الحضـــارات وتفاعلها وأن هذا التفاعل ، عندما كان صـــحيا ، ومـن مـوقع**

الاستقلال ـ لا التبعية وبمنهج راشد ورشيد ، كانت ثمراته طيبة وخيرة ، بل وضرورية لمختلف الأطراف .. وكانت نتائجه دعما للتمايز وليس الغاء له ، ونفيا للانغلاق الذى يحمل مخاطر الجمود والضمور والانقراض للحضارة التى تسلك سبيل الانغلاق ! ..

اننا اذا نظرنا الى حضارتنا ، وفى وضعها الراهن ، الذى فرضت عليها فيه تحديات كثيرة .. من مثل « التخلف الموروث » من عصور التراجع والانحطاط المملوكية العثمانية .. ومن مثل « التغريب » الذى جاءت به الغزوة الاستعمارية الحديثة ، فسنجد أن هذه التحديات قد كادت أن تعزل حضارتنا عن السيادة على أرضها وحاولت اقتلاعها اقتلاعا ، ليحل النموذج الحضارى الغربى محلها ، يزعم أنه « البديل العصرى » القادر على «تحديث» الحياة وتغيير « التخلف الموروث » ..

واذا كنا نرفض « التبعية » للنموذج الغربى ، حرصا على استقلالنا الحضارى ، وايمانا منا بأن صلاحيته فى بلاده ـ وهى صلاحية يتشكك الغربيون فيها الآن ـ لا تؤهله للصلاحية فى بلادنا .. فاننا نرفض كذلك ، أن يكون « التخلف الموروث » هو البديل للتغريب .. فهذا « التخلف الموروث » لا يعبر عن سمات حضارتنا وخصائصها ، لأنه ، فى أغلبه ، وافد مملوكى أو عثمانى وركام من الجمود والشعوذة صنعه عصر التدهور .. فهو

نتوء شـــاذ عن المجـــرى الطبيعى لتطورنا الحضـــارى الأصيل ..

وبالطبع ، فان رفض « التخلف الموروث » ورفض « التغريب » ، يضع على عاتق الفكر العربى والاســلامى ثقل المهمة الاكبر والأعقد .. مهمة البحث الجاد لبلورة المشروع الحضارى النهضوى البديل ..

فانطلاقا من الاحتفاظ « بهويتنا » .. وبحثـــا فى الحضارات الأخرى عن «عوامل القوة» التى تدعم اســتقلال هذه الهوية ــ ولا تطمسها ــ والتى تزيد هذه الهـــوية فعالية ــ ولا تضعفها .. والتى تخرج هـــذه الهوية من « الكمون ــ والوجود بالقوة » ، الى « الظهور ــ والوجود بالفعل » ــ انطلاقا من هذين المصـــدرين ، وصدورا من هذين المنبعين .. وفى ضوء واقعنا المعاصر . والتحديات التى تواجه الأمة ، وتشل فعالياتها ، وتبـــدد طاقاتها ، وتحول بينها وبين الانعتاق والانطلاق .. تأتى ــ بعـــد استخلاص الهوية من « الموروث » ــ ضرورة البحـــث فى الحضارات الاخرى عن « عوامل القوة » ، حتى يكتمـــل للأمة المشروع النهضوى الكافل لبعثها الجديد ..

واذا كان بعض من « الاسلاميين النصـــــوصيين » يتشكك ويشكك فى اســـــلامية وجدوى أى انفتاح على الحضارات الاخرى أو استلهام من هذه الحضارات ..

واذا كان بعض من « المتغربين » يتشكك ويشــكك في قدرة الاسلاميين ـ باطلاق ـ على ممارسة الانفتـــاح الحضارى ·· فاننا نقول : ان ما أشرنا اليه من ضرورة التفاعل الحضارى ، ليس كلاما غريبا على النهج العربى الاسلامى ، ولا هو بالحديث الجديد غير المسبوق ـ بل ان هذا الموقف هو الموقف العربى الاسلامى ، الغالب ·· والأصيل ··

ـ فالرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من قبل أربعــة عشر قرنا ، هو القائل عن « الحكمة » : « إنها الاصابة فى غير النبوة » ·· فليست النبوة وعلومها فقط ، هى الحاوية للاصابة وللحكمة ! ··

وهو صلى الله عليه وسلم ، الذى يعلم أمته ضرورة التماس الحكمة من مصادرها ، بصرف النظر عن المواطن والمعتقدات ·· فيقول : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »·· ولذلك ، فأنى وجدها فهو أحق الناس بها ! ··

ـ وفقهاء الاســـــلام هم الذين شرعـوا لضرورة الاستمرارية فى مسيرة الفكر الانســـانى فقالوا : « ان شريعة من قبلنا شريعة لنا ، ما لم تنسخ » ! ·· فليست هناك حواجز تمنعنا ان نصافح الآخرين ، أو أن نستلهم الوافد المفيد ، بل لابد وان نســـعى الى الوافد الصـحى والضرورى ، الذى يقوى اســـتقلالنا ويدعم هويتنـــا وذاتيتنا ··

ـ والكندى ، الفيلسوف (٢٦٠ هـ ٨٧٣ م) هو القائل : « خليق بنا أن لا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها ! ..

ـ وابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١٠٢٦ ـ ١١٩٨ م) يقول : « انه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك .. سواء أكان مشاركا لنا فى الملة أم غير مشارك ، طالما كان صوابا .. » .

ـ وجمال الدين الأفغـــانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٥٧ م) هو القائل : « ان أبا العلم وأمه هـو الدليل ، والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات .. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل » ..

« والتمدن الأوربى ، هو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى .. ولا ملجىء للشرقى . فى بدايتـــه ، أن يقف موقف الأوربى فى نهايته .. ولابد من التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .. أما المقلدون فانهم يشوهون وجه الأمة ، ويضيعون ثروتها ، ويحطون من شأنها .. انهم المنافذ لجيوش الغزاة ، يمهدون لهـم السبيل ، ويفتحون لهم الأبواب .. » ! ..

ـ ورفاعة الطهطاوى (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٢ م) هو الذى يقول : « علينا أن نأخذ عن أوربا

« المعارف البشرية المدنية ·· والعلوم الحكمية العملية » ·· أما روح حضارتهم وفلسفاتهم فهى مليئة « بالحشوات الضلالية · المخالفة لسائر الكتب السماوية ·· » !

وعلى هذا الدرب سار رواد المد الاسلامى المعاصر ··

ـ فكتب حسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م) : وهو الذى رفض ما فى الحضارات الغربية من « مادية والحاد وشك واباحية وأثرة وربا ·· » ـ كتب يقول : « ان طبيعة الاسلام ، التى تساير العصور والأمم وتتسع لكل الأغراض والمطالب ·· لا تأبى أبدا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعد الاسلام الكلية وأصوله العامة ·· انه يدعو الى أن نأخـــذ من كل شىء أحسنه ، وينادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، ولا يمنع أن تقتبس الامة الاسلامية الخير من أى مكان ، فليس هناك ما يمنع من أن ننقل كل ما هو مفيد من غيرنا ، ونطبقه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا ·· »

ـ والمودودى (١٣٢١ ـ ١٣٩٩ ـ ١٣٠٣ ـ ١٩٧٩ م) ـ وهو من أبرز من انتقد الطابع المادى للحضارة الغربية ـ هو القائل : « ان موقف الاسلام من الأخذ والعطاء بين الحضارات ، هو شىء فطرى فى الأمم التى تختلط بعضها ببعض ، فهو لا يجيزه فقط ، بل يريد له الازدهار ·· فالاسلام لا يريد لجدران التعصـــب بين الأمم أن تبقى

قائمة ، فلا تأخذ أمة فى حضارتها من أمـــة أخـــرى شيئا ٠٠ » !

ـ وسيد قطب (١٣٢٤ ـ١٣٨٦ هـ ١٩٠٦ ـ١٩٦٦ م) ـ وهو الذى سمى الحضارة الغربية : « الجاهلية الجديدة » نراه يدعو الى الاسلام « كتصور مستقل للوجود والحياة ٠٠ ينبثق منه ـ للمسلمين ـ منهج ذاتى مستقل للحياة كلها ٠٠ » ٠٠

وفى ذات الوقت ، يدعو سيد قطب الى أن نأخذ عن الحضارة الغربية علومها الطبيعية ، التى هى ـ بتعبيره ـ « وليدة العبقرية الأوربية فى الابداع المادى ٠٠ » ! ٠٠

***

اذا ، ليس هناك خلاف فى حضـــارتنا على ضرورة التفاعل الحضارى » ٠٠ فبدءا من أحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الى الفقهاء ٠٠ والفلاسفة ٠٠ ورواد التجديد والصحوة الاسلامية ٠٠ ومرورا بتجربة هـــذه الحضارة فى التفاعل مع غيرها من الحضارات ، ليس هناك خلاف حول هذا الموضوع ٠٠ لقد كاد الاجماع أن ينعقـد فى حضارتنا على ضرورة التمييز بين « هوية الأمة » ٠ التى تميزها حضاريا ، وبين« العلوم القائمـــة عـلى الحقائق والقوانين وتطبيقاتها ، وهى التى لا وطن لها ولا جنس ، ولا تتشكل بأشكال البيئات الحضارية المتمايزة ٠



فالهوية ، لابد وأن نبحث عنها فى « الموروث » ..
والعلوم الطبيعية ، وتطبيقاتها ، وما هو صـــالح ومفيد وضرورى من التجارب الانسانية ، وكل ما يمثل « مصادر قوة » للهوية الحضارية المتميزة ، لابد وأن نسعى اليه ، نستلهمه ، ونتمثله . ونوظفه لخدمة « المشروع الحضارى المتميز » ، ولخدمة الهوية الحضارية المتميزة ..

فليس هناك أدنى خلاف ، اذن ، حول الانفتاح على الحضارات ، وضرورة التفاعل مع هذه الحضارات ، من موقع الراشد المستقل .. وانما الخلاف ، هو مع دعـــاة « التبعية الحضارية » ، الذين يزعمون ــ لتبرير هـذه التبعية ــ أن الحضارة الغربية هى الحضارة « الانسانية .. والعالمية .. والعصرية » الوحيدة ، وأنها « النموذج » الوحيد للتحضر والتحـــديث وهـــم ، لذلك ، ينكرون « التعددية الحضارية » و « التمايز الحضارى » .. ان الخلاف ، كل الخلاف ، هو مع هـــذه المقولة المغلوطة والدعوى الخطرة والباطلة ..

اننا اذا وضعنا يدنا على الواقع الحضارى ، التاريخى والمعاصر ، فسنجد هناك تمايزا بين الحضارات ، وتعددية فى الحضارة .. فهل يعلم الذين يزعمون وحدة الحضارة التى هى فى نظرهم الحضارة الغربية ، ما كتبه السياسى الاستعمارى الأمريكى جون فوســـتر دلاس (١٨٨٨ ــ ١٩٥٩ م) عن وحدة الحضارة الغربية ، تلك التى تضـــم



فى نظره ، الدعوة الصهيونية وحركتها والكيان العنصرى الاستيطانى الذى أقامته فى فلسطين ؟! •• هل يعلمون ذلك ؟! •• واذا علموا •• فهل يظلون على دعوتهم لأمتنا العربية الاسلامية الى « التحضر » بذات الحضارة ، التى تجمع ما بين « دلاس » و « بيجن » و « شارون » ؟! •• وهل هذا هو « الموقع الحضارى » الذى يرتضونه لأمتنا •• أمة العروبة والاسلام ؟! ••

***

اننا لا نؤمن « بالحياد » فى الموقف تجاه «الموروث» و « الوافد » •• « فالوافد » طارىء ، لابد وأن يخضع للفحص والانتقاء والاختيار •• والمعيار هنا هو مدى ما يمثله من « مصادر للقوة » تتسق مع طابعنا الحضارى ، وتزيد هذا الطابع قوة تعينه على أن يكون للأمة سبيلا للتقدم والنهوض •• أما « موروثنا » فهو ذاتيتنا الحضارية وأبداع أسلافنا العظام ، ومظهر عبقرية أمتنا ، ومجلى الخصائص التى تميز حضارتنا العربية الاسلامية عن غيرها من الحضارات ••

وهذا « الموروث » ــ الذى يمثل الاسلام مكونه الأول ومعيار الصحة والخطأ فيه ــ ليس تاريخا مضى وانقضى ولا أكفان موتى ، ولا قيودا تشد الحاضر الى ماض سحيق • وانما هو طاقة مبدعة وخلاقة ، وروح سارية فى عقل

الأمة ووجدانها .. واذا كان تمايزنا الحضارى ، وعدوانية الحضارة الغربية ، يفرضان علينا الحذر عندما ننظر فى « الوافد » لنختار .. فاننا لا يجب أن ننسى أن «التجديد» هو سبيلنا المأمون الى تمييز « الثوابت » من « المتغيرات » فى « موروثنا » وفرز « المفيد » من « الضار » .. فبالتجديد وحده تعود الحياة لهذا « الموروث » ، اليوم وغدا . فتتحقق الاستمرارية الحضارية ، دونما قيود على توجهنا وتطورنا الى الأمام ! .

نحو مشروع حضارى متميز

ونحن نؤمن أن « النهضة » ــ بكل ماتعنى من تغيير شامل وجذرى ــ هى سبيل أمتنا الوحيد لقهر مايفرضه عليها الأعداء من تحديات ·· ونؤمن ، كذلك ، أن المهمة الملحة لحركتنا الفكرية هى بلورة المشروع الحضارى الذى هو «دليل» هذه النهضة ·· واذا كنا لا نزعم أننا نمتلك كل الوضوح الذى يؤهلنا لبلورة معالم هذا المشروع ، والذى نعتقد أن صياغته لا بد وأن تكون ثمرة عمل جماعى كبير ــ فاننا ندعو كل المؤمنين بتميزنا الحضارى ، والمدركين لأهمية وضرورة استقلال أمتنا حضاريا ، ندعوهم الى الاسهام فى بلورة ملامح هذا المشروع ، الذى هو طوق النجاة لهذه الأمة من مخاطر «الجمود والتخلف الموروث» ·· ومن مخاطر المسخ القومى والسحق الحضارى والتشوه المعرفى الذى تمارسه الحضارة الغربية مع حضارتنا ، وكل حضارات الأمم التى ابتليت بالاستعمار والتغريب ··

وفى اطار هذه المهمة الفكرية ، فلربما كان مفيدا أن نضع أمام العقل العربى والمسلم « نقاطا » هى أشبه ما تكون « برؤوس الموضوعات » و (المحاور) التى نعتقد بدخولها فى قسمات صورة ذلك المشروع ·· المشروع الحضارى العربى الاسلامى ، البديل ·

● **اننا ندعو الى تأمل «التوحيد» ، باعتباره فلسفة الأمة وروح حضارتنا ، والبوصلة الموجهة لعقلها · فى نظرتها للكون·· وفى الألوهية والتدين ·· وفى التأليف الوطنى والقومى والاسلامى «فالتوحيد» ملمح من أبرز ملامح حضارتنا - بل لا نغالى اذا قلنا : انها حضارة التوحيد ·· انه ملمح** من ملامح حضارتنا ، به تميزت ، وبه جاءت دياناتها السماوية جميعا · ونحن نجده فى تراث مصر القديمة عند اخناتون [١٣٦٩ - ١٣٥٣ ق·م] الى الحد الذى تحدثت فيه أناشيده عن الله ، سبحانه ، كاله للكون كله ·· انه جزء من مواريث حضارتنا ، جاءها من بقايا الشرائع الالهية القديمة ·· وبه تميزت عن صورة التوحيد فى [العهد القديم] ، تلك التى جعلت « التوحيد » أقرب ما يكون الى الوثنية ، فالله فيها هو اله لبنى اسرائيل وحدهم ، أما الشعوب الأخرى فلها آلهتها الخاصة بها ؟!

وحتى وثنية العرب القديمة ، فى جاهليتهم التى سبقت الاسلام ، فانها كانت « انحرافا » عن جوهر ونقاء هذا « التوحيد » [ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟

ليقولن الله ··] ـ لقمـــان : ٢٥ ـ ·· [ما نعبدهـــم الا ليقربونا الى الله زلفى] ـ الزمر : ٣ ـ ·

وهذه الروح « التوحيدية » ، التى بلغت فى روح الحضارة الشرقية مبلغ « الهوية » والثوابت من القسمات، هى التى جعلت المسيحية تعجز عن تلبية احتياجات الانسان الشرقى الاعتقادية ، عندما أصابتها التأثيرات « الهلينية » بما أخرجها من الاطار النقى للتوحيد ؟! ·· فكان دخول شعوب الشرق فى دين الله ـ الاسلام ـ أفواجا ، دونما اكراه بالترغيب أو الترهيب ، رغم حرية الاعتقاد التى أبقت المؤسسات الكنسية ومالها من تراث فى الجدل وخبرات فى التبشير ·· فلقد كان التوحيد الاسلامى ، الذى بلغ الذروة فى البساطة والنقاء ، والذى أعاد الى هذه العقيدة ـ التى هى جوهر الدين ـ صفاءها ونقاءها ·· كان هذا « التوحيد » هو « الهوية » التى أعادت شريعة الاسلام الكشف عن جوهرها ، والتى اجتــذبت الانســان الشرقى اليها ··

ولذلك ، فنحن ندعو الى تأمل هذا « التوحيد » ، ودوره وامكاناته ، التى من الممكن أن يكشف عنها مشروعنا الحضارى المنشود ·

● **وندعو الى تأمل « العروبة » ، بمعناها الحضارى ، غير العرقى أو العنصرى،وتأمل العلاقة العضوية التى تربطها بالاسلام ، بمعناه الحضارى ، الذى يتجاوز نطاق الشعائر**

والطقوس فلا يقتصر عليها وحدها ... ففى هذه العلاقة نفى للتناقض المزعــوم بـين الدائرة القوميــة والدائرة الاسلامية ، وترتيب لأولويات العمل ، انطلاقا من الدائرة الوطنية ، فالقومية ، فالاسلامية ، فالانسانية ..

ندعو الى تأمل علاقة «العروبة» ب «الاسلام» ، وما تعطى هذه العلاقة من امكانات وملامح فى مشروعنا الحضارى الذى نفكر فيه ..

● وندعو الى تأمل « الوسطية الاسلامية » ، كمعيار للتوازن ، وباعث على الموازنة ، التى غدت ملمحا من ملامح شخصيتنا الحضارية .. ومن ثم فانها ملمح من ملامح مشروعنا الحضارى الذى ندعو اليه ..

اننى أتصور أن «وسطيتنا الاسلامية» هذه ستجعل لمشروعنا الحضارى ذاتية متميزة :

ففى النظرة للانسان : وسطية ، تراه خليفة الله فى الأرض.. وليس السيد المطلق لهذا الكون.. وأيضا ليس ابن الخطيئة المنبوذ ! .

وفى الحرية : الاختيار فى حدود الثوابت التى تمثل اطار الاختيار ... ومن ثم ، فهنا وســطية بين الليبرالية المطلقة وبين الشمولية المطلقة .. قد تكون « الديمقراطية الموجهة» هى أقرب الصيغ للتعبير عنها .. اتفاق على الثوابت

والمعايير واطار المشروعية ثم تعددية فى السبل والمناهج والفروع والتفاصيل ...

وفى الاقتصاد : ملكية الرقبة فى الثروة القومية لله وحده . والأمة ، ككل ، مستخلفة عن الله فى الأموال .. فلا مكان للحرية الاقتصادية والملكية الفردية ، بمعناها المطلق فى الفلسفة الليبرالية الغربية ... ولا مكان ، كذلك ، لتجريد الانسان الفرد من أى حق فى التملك ، الذى يحفزه للخلق والتنمية والابداع .. لأن كون « الملكية الحقيقية » لله ، يصحبها كون « الملكية المجازية » للفرد ، أى ملكية المنفعة ـ التى هى الوظيفة الاجتماعية للمال ـ

وفى طبيعة السلطة ، وعلاقة الدين بالدولة : توسط بين « الكهانة » ووحدة الدين والدولة ؛ وبين « العلمانية » وفصل الدين عن الدولة .. يتجسد فى « التمييز » بين الدين والدولة فالدولة فى مشروعنا الحضارى « اسلامية » ، للشريعة ـ بمقاصدها ـ الهيمنة عليها ، والمشروعية فى قانونها .. لكنها ليست الدولة « الدينية » ، التى تحكم بالحق الالهى و «رجال الدين» ، فتضفى العصمة والقداسة على البشر وتشريعاتهم باسم الدين ! .

وفى مفهوم « الأمة » : توسط المفهوم « القومى ـ العلمانى » ، الذى يستبعد الدين من القسمات المكونة

« للأمة » •• وبين المفهوم « الكهنوتى » ، الذى يستبعد غير المسلمين من اطار « الأمة » ••• فالأمة ، بالمعنى القومى ، تستوعب كل الذين وحدت بينهم السمات القومية •• فهم ، أمة وطنية ، يستوون ويتساوون فى حقوقها وواجباتها •• ثم هم جميعا يجمعهم الاحتكام الى الشريعة ؛ التى هى ـ فى أغلب ميادينها ـ قانون وضعى محكوم باطار الاسلام وحدوده وروحه ••

وعلاقة هذه الأمة بالدين علاقة وثيقة •• فدين الله واحد ، هو دين التوحيد فى الألوهية ، والايمان بالبعث ، والعمل الصالح •• وفى اطار هذا الدين ـ الذى هو واحد أزلا وأبدا ـ تعددت وتتعدد «الشرائع» ـ التى هى طرق للتدين بهذا الدين ـ أزلا وأبدا كذلك فالوحدة فى الدين والتعدد فى الشرائع الدينية ـ والاحتكام الى شريعة الاسلام المدنية ـ التى لا نقيض لها ولا بديل عنها فى الشرائع غير الاسلامية ـ هى صيغة الوفاق والاتفاق بين الأغلبية المسلمة والأقليات غير المسلمة فى المشروع الحضارى الذى ندعو اليه ••

ومكان الاسلام فى تحديد مفهوم « الأمة » هو الرباط الذى يجمع الأقليات المسلمة ، غير العربية ، الى الأغلبية التى جمعت بين العروبة والاسلام : ••

تلك نماذج لملامح فى هذا المشروع الحضارى العربى الاسلامى •• وهى بالطبع لا تخرج عن اطار النماذج التى

تنتظر ــ كما قلنا ــ الجهود الفردية والجماعية التى تغنيها وتكملها ، حتى تتحول الى مشروع مؤهل لأن ينهض بالأمة وتنهض به الأمة من واقعها الراهن ، الذى تكالبت عليها فيه التحديات .. وخاصة تحدى « التغريب » وتحدى « التخلف الموروث » ..

واذا كنا نعتقد بالأهمية التى تمثلها هذه النماذج لهذه الملامح من « المشروع الحضارى » المنشود .. فان الأهم هو الاتفاق على :

مبدأ التمايز الحضارى ، والتعددية الحضارية ..
وضرورة الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الاسلامية .

ثم لنجتهد جميعا فى بلورة ملامح هذا المشروع ، الكافل لأمتنا النهضة والانطلاق تلك هى الكلمة السواء التى يدعو اليها كل الذين يؤمنون بأن الاستقلال الحضارى هو طوق النجاة لأمتنا العربية الاسلامية من مخاطر التحديات التى فرضها ويفرضها عليها أعداؤها الكثيرون! .

المصـــادر

(أ) قرآن وسنة :

١ ـ القرآن الكريم ·

٢ ـ كتب السنة النبوية الشريفة :

- [صحيح البخارى] طبعة دار الشعب ـ القاهرة ·
- [صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م ·
- [سنن الترمذى] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧م ·
- [سنن النسائي] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م ·
- [سنن أبى داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م ·
- [سنن ابن ماجة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م ·
- [سنن الدارمى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م ·

● [مسند الامام أحمد بن حنبل] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ .

● [موطأ الامام مالك] طبعة دار الشعب ـ القاهرة .

(ب) **مصادر مطبوعة :**

ابن أبى الحديد : [شرح نهج البلاغة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م .

ابن الأثير : [الكامل فى التاريخ] .

[أسد الغابة فى معرفة الصحابة] طبعة دار الشعب القاهرة .

ابن باديس : [كتاب آثار ابن باديس] طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م .

ابن تيمية : [منهاج السنة النبوية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م .

ابن خلدون : [المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ .

ابن عبد البر : [الدرر فى اختصار المغازى والسير] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

ابن عبد ربه : [العقد الفريد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م .

ابن عساكر : [تهذيب تاريخ دمشق] طبعة دمشق .

ابن القيم : [أعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

ابن منظور : [لسان العرب] طبعة دار المعارف ـ القاهرة ٠

أبو حنيفة النعمان (المغربي) : [دعائم الاسلام] طبعـــة القاهرة سنة ١٩٦٩م ٠

أبو يوسف : [الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥م ٠

الأفغاني (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م ٠

التفتازاني : [شرح العقائد النسفية] طبعة القاهرة سنة ١٣٣١هـ ـ سنة ١٩١٣م ٠

الجاحظ : [رسائل الجاحظ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م ٠

الجويني : [الارشاد] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠م ٠

حسن البنا : [رسائل الامام الشهيد] طبعة دار الشهاب القاهرة ٠

[رسالة المؤتمر الخامس] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م٠

الدجاني (أحمد صدقي ـ دكتور) ـ [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م ٠

الدهلوي (ولي الله) : [حجة الله البالغة] طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ ٠

الرافعي (عبد الرحمن) : [عصر محمد علي] طبعة القاهرة سنة ١٩٥١م ٠

سنتيلانه : [القانون والمجتمع] ـ ضمن كتاب « تراث الاسلام » ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م ٠

سيد قطب : [معالم فى الطريق] طبعة القاهرة سـنة ١٩٨٠م ٠

الشهرستانى : [نهاية الاقدام فى علم الكلام] طبعـة الفريد جيوم ٠

الطبرى : [التاريخ] طبعة دار المعارف ـ القاهرة ٠

الطهطاوى : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م ٠

الطوسى (أبو جعفر) : [تلخيص الشافى] طبعة النجف سنة ١٣٨٣هـ ـ سنة ١٣٨٤هـ ٠

عبد الجبار بن أحمد (قاضى القضاة) [المغنى فى أبواب التوحيد والعدل] طبعة القاهرة ٠

عبد الصاحب الدجيلى : [الشعوبية] طبعة النجف سنة ١٩٦٠م ٠

عبود الزمر : صحيفة [النور] ـ القاهرة ـ العدد ١٥٥ الصادر فى ٧ جمادى الأولى سنة ١٤٠٥هـ ٢٧ فبراير سنة ١٩٨٥م ٠

على بن أبى طالب : [نهج البلاغة] طبعة دار الشـعب ـ القاهرة ٠

على عبد الرازق : [الاسلام وأصول الحكم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م ٠

عمر بن الخطاب : [خطب عمر بن الخطاب ووصاياه] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥م ٠

الغزالى (أبو حامد) [الاقتصاد فى الاعتقـــاد] ـ ضمن مجموعة ـ طبعة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ٠
[فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م ٠

القرافى : [الاحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والامام] طبعة حلب سنة ١٩٦٧م ٠

الكتانى (عبد الحى) : [نظام الحكومة النبـوية المســـمى التراتيب الادارية] طبعــــة بيروت ـ دار الكتاب العربى ٠

الكرمانى : [راحة العقل] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م ٠

الكواكبى (عبد الرحمن) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م ٠

لوثروب ستودارد : [حاضر العالم الاسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٧١م ٠

المـــاوردى : [أدب الدنيا والدين] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م ٠

مجمع اللغة العربية : [المعجم الوسيط] طبعة القـــاهرة سنة ١٩٧٢م ٠

محمد أحمد خلف الله (دكتور) : [مجلة «العربى» عدد ٣٠٧ رمضان سنة ١٤٠٤هـ يونيو سنة ١٩٨٤م]
[صحيفة « الأهالى » عدد ١٤٦ ـ ٢٥ يوليو ١٩٨٤م].

محمد حميد الله الحيدرآبادى : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

محمد رشاد خليل (دكتور) : [مجلة « الدعوة » عدد ربيع الثانى سنة ١٣٥٨هـ ـ مارس ١٩٧٨م ـ وعدد جمادى الأولى سنة ١٣٩٨هـ ـ ابريل سنة ١٩٧٨م].

محمد رضا المظفر : [عقائد الامامية] طبعة النجف ـ دار النعمان .

محمد عبده (الاستاذ الامام) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

محمد عمارة (دكتور) : [الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

[المعتزلة وأصول الحكم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م .
[المعتزلة والثورة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م .
[الاسلام والسلطة الدينية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م .
[الاسلام بين العلمانية والسلطة الدينية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م .

[نظرية الخلافة الاسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.
[العلمانية ونهضتنا الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

[العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م .

محمد فؤاد عبد الباقى : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب ـ القاهرة .

مصطفى مرعي : [مجلة « المصور » عدد ٣١٠٤ ـ ٦ ابريل سنة ١٩٨٤م] .

المقريزى : [الخطط] طبعة دار التحرير ـ القاهرة .

المودودى (أبو الأعلى) : [الحكومة الاسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

[الاسلام والمدنية الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨م .

[نظرية الاسلام السياسية] ـ ضمن مجموعة « نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور » ـ طبعة بيروت سنة ١٩٦٩م .

النويرى : [نهاية الأرب] طبعة دار الكتب المصرية .

وينسنك (أ.ى) وآخرين [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن سنة ١٩٣٦ ـ سنة ١٩٦٩م .

الفهـــــرس

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٣٧٨٠

ISBN ٩٧٧ ـ ٠٢ ـ ١٦٩٥ ـ x

مطابع الهيئة المص

٧٠ قرشا